آني إرنو

امرأة



ترجمة: سحر ستّالة

مراجعة: محمد جليد

@ketab_n

منشورات الجمل

رواية

آني إرنو

امـرأة

ترجمة: سحر ستّالة

مراجعة: محمد جليد

منـشورات الجمل

آني إرنو: **امرأة**

آني إرنو، روائية فرنسية معاصرة. أمضت شبابها في «إيفيتو» في منطقة النورماندي. حائزة «الأغريغاسيون» في الآداب الحديثة، مارست التدريس في «أنيسي» و«بونتواز». تعيش اليوم في «سيرجي» بمنطقة «لو فال دواز». فازت روايتها «الساحة» بجائزة «رونودو» (١٩٨٤). صدر لها عن منشورات الجمل: **الاحتلال**، ٢٠١١؛ **شغف بسيط**، ٢٠١٩؛ **الحدث**، ٢٠١٩.

آني إرنو: **امرأة**، الطبعة الأولى
ترجمة: سحر ستّالة، مراجعة: محمد جليد

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Annie Ernaux: *Une femme*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

من الخطأ الادِّعاءُ بأن التَّناقض أمرٌ
فائق التصوُّر لأن وجوده الحق يكمن في ألم
الكائن الحي..

هيغل

توفِّيت والدتي يومَ الاثنين، في السَّابع من أبريل، بدار العجزة بمدينة بونتواز حيث وضعتها منذ سنتين. قال لي الممرِّض عبر الهاتف: «توفِّيت والدتكِ هذا الصباح بعد أن تناولت فطورها». كانت الساعة وقتها تشير إلى العاشرة.

بدا باب غرفتها مغلقا لأول مرة. غسَّلوها، وعصابة قماش أبيض تلفُّ رأسها، مارّة تحت ذقنها، وساحبة كل الجلد المحيط بالفم والعينين. يُغطِّيها رداء يصل إلى كتفيها ويخبِّئ يديها. بدت أشبه بمومياء صغيرة. ترُكت القضبان التي تمنعها من النهوض على حالها. أردت أن ألبسها قميص النَّوم الأبيض الموشَّى بأشرطة مسنَّنة، كانت اشترته في ما مضى من أجل مراسم دفنها. لكن الممرض أخبرني أنَّ موظفة بالقسم ستتكفَّلُ بالأمر، كما ستضع على صدرها الصَّليب، الذي كان في دُرج الطاولة جنب السَّرير. كان يفتقد مسمارين يشدَّان الذراعين النحاسيَّين فوق الصليب. لم يكن الممرض واثقا من العثور على مسمارين غيرهما. حسنا ليس لهذا أيّ أهمية، إذ رغبت في أن يضعوا عليها صليبها رغم كل شيء. على الطاولة المتحرِّكة وُضعت باقة

من زهور الفورسيثيا جلبتها معي البارحة. نصحني الممرِّض بالتوجُّه فورا إلى قسم الحالة المدنية التَّابع للمستشفى. في غضون ذلك الوقت، كانوا سيجردون أغراض والدتي الشخصية. لم تعد تملك شيئا تقريبا، ماعدا بدلة نسائيَّة، حذاء صيفيّ أزرق وأداة حلاقة كهربائية. تعالى صراخ امرأة، هي نفس المرأة التي تصرخ منذ شهور. لم أكن أفهم كيف تظلُّ هي على قيد الحياة بينما تموت أمي؟

في قسم الحالة المدنيَّة سألتني امرأة شابة عن السَّبب الذي جئت من أجله. أجبتها: «لقد توفِّيت والدتي هذا الصَّباح». «في المستشفى أم إثر إقامة طويلة الأمد؟ ما اسمها؟» ألقت نظرة على ورقة ثم افترَّ ثغرها عن ابتسامة عابرة: لقد كانت على علم بحالتها. ذهبت لتبحث عن ملفِّ والدتي ثم طرحت عليَّ بعض الأسئلة حولها، عن مكان ولادتها، وآخر عنوان لها قبل إقامتها الطويلة. كل هذه المعلومات يجب أن تُذكر في الملف.

في غرفة والدتي وُضع على طاولة السَّرير كيس بلاستيكيٌّ يحوي أغراضها. ناولني الممرض وثيقة الجرد لإمضائها. لم تعد تراودني الرغبة في حمل الملابس والأشياء التي كانت تحتفظ بها هنا ماعدا تمثال صغير اشترته في ما مضى أثناء إحدى رحلات الحج إلى ليزيو[١] رفقة والدي، وتمثال آخر لمنظِّف مداخن من منطقة سافوا، كذكرى من آنيسي[٢]. الآن وقد جئت، صار

(١) بلدة فرنسيَّة تقع شمال غرب فرنسا في منطقة النورماندي.
(٢) مدينة فرنسيَّة.

بإمكانهم حمل والدتي إلى مستودع الموتى بالمستشفى دون أن يضطرُّوا لانتظار نهاية الساعتين القانونيتين المخصَّصتين لإبقاء الجسد في القسم بعد الوفاة. عند مغادرتي لمحتُ عبر الواجهة الزجاجيَّة لمكتب الموظفين المرأة التي قاسمت والدتي غرفتها. كانت جالسة ممسكة بحقيبة يدها وقد تركوها تنتظر هناك حتى تُنقل والدتي إلى مستودع الموتى.

رافقني زوجي السَّابق إلى إدارة شؤون الجنائز. خلف الزهور الاصطناعيَّة المعروضة وُضعت كنبات وطاولة منخفضة عليها مجموعة من المجلاَّت. قادنا أحد الموظَّفين إلى مكتب وطرح علينا أسئلة حول تاريخ الوفاة ومكان الدَّفن وعما إذا كنا سنحيي قُدَّاسا أم لا. دوَّن كل شيء على ورقة وكان يرقن من حين إلى آخر على آلة حاسبة. ثم رافقنا إلى حجرة معتمة بلا نوافذ. أشعل النور فلمحت عشرات التَّوابيت المنتصبة على الجدار. أوضح لنا الموظِّف قائلا: «كل الأسعار محددة بتعريفات متفق عليها.» فُتحت ثلاثة توابيت حتى نتمكن أيضا من اختيار لون حشوته. اخترت خشب البلُّوط لأنها الشجرة المفضَّلة لوالدتي ولأنها كانت تنزعج دائما كلما علمت أن قطعة أثاث جديدة صنعت من خشب البلُّوط. اقترح عليَّ زوجي السابق اللون الوردي المائل للبنفسجي من أجل حشوة التابوت. كان فخورا، تكاد السعادة تغمره لأنه تذكَّر أنها غالبا ما امتلكت صدريات من هذا اللَّون. وقعتُ شيكا للموظف. كانت الإدارة

تعنى بكل شيء ما عدى توفير الأزهار الطبيعية. عدت إلى منزلي حوالي الظهيرة. بعد أن شاركت زوجي السابق كوبين من نبيذ بورتو، بدأت أشعر بألم في رأسي وبطني.

حوالي السَّاعة الخامسة، اتَّصلتُ بالمستشفى لأسأل عن إمكانيَّة رؤية والدتي في مستودع الموتى برفقة ولديَّ. أجابتني موظفة الهاتف أن الوقت متأخر، ذلك أن المستودع يغلقُ أبوابه على الساعة الرابعة والنصف. ركبت السيارة بمفردي قصد البحث عن محلٍّ لبيع الزهور يفتح يوم الاثنين، في الأحياء الجديدة القريبة من المستشفى. كنت أرغب في شراء زنابق بيضاء، لكن البائعة نصحتني بالعدول عن ذلك لأن هذا النَّوع من الزهور لا يخصَّص إلا للأطفال وللشابات الصغيرات إذا لزم الأمر.

جرت مراسم الدَّفن يوم الأربعاء. وصلت إلى المستشفى صحبة ولديَّ وزوجي السابق. لم نلمح علامة تشير إلى مستودع الموتى، حيث تهنا قبل العثور عليه أخيرا، إذ هو عبارة عن بناية إسمنتية بلا طوابق، تقع بمحاذاة الحقول. أشار إلينا موظف يرتدي وزرة بيضاء، كان خائضا في مكالمة هاتفية، بالجلوس في رواقٍ. جلسنا على كراسٍ مصفوفة على طول الجدار، قبالة حمَّامات تركت أبوابها مفتوحة. كنت ما أزال في غاية الشَّوق لرؤية والدتي وأضع على جسدها غصنين صغيرين من السَّفرجل المزهر كنت أحملهما في حقيبتي. لكننا كنا نجهل صدق نيَّتهم في أن يطلعونا على والدتي للمرَّة الأخيرة قبل إغلاق التابوت.

خرج موظف إدارة شؤون الجنائز الذي التقينا به في المخزن من حجرة مجاورة، ودعانا بكلٍّ لطف إلى اللَّحاق به. كانت والدتي مسجاة داخل التابوت، رأسها منقلب إلى الخلف ويداها مضمومتان على الصَّليب. نُزعت عصابة رأسها وأُلبست قميص النوم ذي الخيوط المسنَّنة. وكان الغطاء المصنوع من الساتان يصل إلى صدرها. حدث ذلك في قاعة إسمنتية كبيرة خالية، ينبعث منها نور ضئيل كنت أجهل مصدره.

أخبرنا الموظف بأن الزيارة انتهت، ورافقنا مرة أخرى إلى الرِّواق. بدا لي أنه أطلعنا على والدتي كي نلحظ جودة خدمات المؤسسة. عبرنا الأحياء الجديدة حتى وصلنا إلى الكنيسة التي شيدت قرب المركز الثقافي. تأخَّرت عربة دفن الموتى في الوصول، فاضطررنا للانتظار أمام الكنيسة. قبالتها مباشرة، على واجهة متجر عام كبير كُتب بالزفت: «المال والبضائع والدولة هي أركان الميز العنصري الثلاثة». تقدَّم كاهن في غاية اللطف. سألني: «هل هي والدتك؟» ثم استفسر ولدَيَّ عما إذا كانا يواصلان دراساتهما، وفي أي جامعة؟

ثمة شيء ما شبيه بسرير صغير شاغر، حوافُّه موشَّاة بالمخمل الأحمر، وُضع مباشرة على الإسفلت، أمام المذبح. وضع عليه لاحقا عمال إدارة الجنائز تابوت والدتي. شغَّل الكاهن شريطا لموسيقى الأرغن على جهاز التَّسجيل. كنا الوحيدين الذين حضروا القدَّاس. إذ لم يكن لوالدتي معارف هنا. بدأ الكاهن يتحدث عن «الحياة الخالدة»، عن «انبعاث

أختنا»، وترنَّم ببعض التَّراتيل. وددت لو أن هذا يتواصل مدى الحياة، أن نفعل أشياء أخرى من أجل والدتي.. صلوات أو تراتيل. انطلقت موسيقى الأرغن ثانية، ثم أطفأ الكاهن الشُّموع التي تحيط بجوانب التابوت.

غادرت سيارة دفن الموتى فورا باتجاه إيفيتو في النورماندي حيث ستدفن والدتي إلى جانب والدي. قطعت الرحلة في سيارتي الشخصية رفقة ولدَيَّ. هطل المطر طوال الطريق، وعصفت الريح بشدة. بدأ الولدان يطرحان أسئلة حول القدَّاس، لأنهما لم يشهدا طقوسه من قبل، ولم يكونا على اطلاع بالسلوك الذي عليهما اتِّباعه خلال الموكب.

في إيفيتو، تجمَّعت العائلة بالقرب من مدخل المقبرة. صاحت إحدى قريباتي من بعيد: «أيُّ طقس هذا؟ لكأننا في شهر نوفمبر!». قالت ذلك لتكسر الصَّمت، حتى لا تضطرَّ للنَّظر إلينا ونحن نسير دون أن نقول شيئا. اتجهنا جميعا نحو قبر والدي. كان الضريح مفتوحا وإلى جانبه جُمع التراب في كثيب أصفر. حُمل تابوت والدتي. حينما حمل بالحبال ليوضع في القبر، أشار عليَّ الرجال بالاقتراب كي أراه وهو ينزلق على طول جدران الحفرة. كان الحفَّار ينتظر على بعد أمتار ممسكا بمجرفته. كان يرتدي بذلة زرقاء ويعتمر قبَّعة وينتعل حذاء طويلا، تميل بشرته إلى اللون البنفسجي. اعتملت في داخلي رغبة في الحديث إليه، في أن أعطيه مائة فرنك، ظانة أنه ربما سيشتري بها نبيذا. ليس لهذا أي أهمية. على العكس، كان هو

آخر رجل سيعتني بوالدتي بإهالة التراب عليها بعد فترة الظهيرة كلها. لا شك أنه يجد متعة في فعل ذلك.

رفضت العائلة أن أغادر دون أن أتناول شيئا. كانت شقيقة والدتي قد أقامت وليمة الدَّفن في أحد المطاعم. استجبت لطلبهم، كما بدا لي أن بقائي هناك هو شيء مايزال بإمكاني فعله من أجلها. كانت الخدمة بطيئة، حيث تحدَّثنا عن العمل والأطفال، وعن والدتي أحيانا. كانوا يقولون لي: «ما فائدة أن تعيش على هذه الحال سنوات عديدة»؟ اتَّفق الجميع على أن في موتها راحةٌ لها. كانت هذه مجرَّد جملة، ضربا من اليقين أجهل كُنهه. عدت إلى المنطقة الباريسية عند المساء. كان كل شيء قد انتهى فعلا.

في الأسبوع الموالي، كانت نوبات بكاء تفاجئني في كل مكان. كنت أستيقظ وأنا على يقين بأن والدتي قد ماتت. أستفيق من أحلام ثقيلة لا أذكر منها شيئا سوى أنها كانت مؤثثة بوجودها قبل أن تموت. لم أعد أفعل شيئا غير بعض المهام الحياتية الضروريَّة كالتبضُّع وإعداد الطعام ووضع الثياب في آلة الغسيل. غالبا ما أنسى ترتيب هذه الأشياء. كنت أتوقف بعد تقشير الخضار، عاجزة عن الحركة الموالية، أي غسلها، إلا بعد مجهود مضن من التفكير. أصبحت القراءة مستحيلة. مرة، نزلت إلى القبو حيث تقبع حقيبة والدتي ومحفظة نقودها وحقيبة صيفية أخرى تحوي مناديل رأس. بقيت منحنية أمام الحقيبة المواربة.

لكن الألم كان يعتصر قلبي أكثر خارجا، وأنا في المدينة. فعندما أقود السيارة تجتاحني هذه الفكرة بعنف: «إنها لن توجد في أي مكان آخر من العالم بعد الآن». لم أعد أفهم السلوك الذي ينهجه الناس في العادة، والعناية البالغة التي يبذلونها داخل المجزرة لاختيار هذه القطعة من اللحم أو تلك كانت تصيبني بالرعب.

اختفت هذه الحالة شيئا فشيئا. لكن مايزال يعتمل في أعماقي نفس الشعور بالارتياح عندما يكون الطقس باردا أو ماطرا. كما في أول الشهر عندما كانت والدتي حية. تجتاحني لحظات من الفراغ أتأكد خلالها أن «لا جدوى من..» أو «لم تعد بي حاجة لـ..» (فعل هذا أو ذاك من أجلها). لكن ما ينقص هذه الفكرة كان الربيع الذي لن تشهده (وأن أستشعر الآن قوة الجمل العادية وحتى الصيغ المبتذلة).

غدا سيكون قد مرَّ على مراسم الدَّفن ثلاثة أسابيع. أول أمس فقط، تجاوزتُ الذُّعر الذي ينتابني من الكتابة أعلى ورقة بيضاء، كأنني أخطُّ أولى الكلمات في كتاب، وليس رسالة إلى أحدهم تبدأ بـ«والدتي توفيت». كما تمكَّنت من تأمُّل صورٍ لها. تظهر في إحداها جالسة على ضفاف نهر السين وقد أثنت ساقيها. وفي صورة بالأبيض والأسود، تكتسي بدلتها المصنوعة من وبر الألبكة الأسود لمعانا خاص، لكن كأنني كنت أرى شعرها أصهبا.

سأواصل الكتابة عن أمي. إنها المرْأة الوحيدة التي كانت

تعني لي حقا. أمي التي اختلَّ عقلها منذ سنتين. ربما سيكون من الأفضل أن أنتظر حتى ينصهر مرضها وموتها في مجرى حياتي الماضية، كما حصل مع أحداث أخرى، كموت والدي وانفصالي عن زوجي السابق، كي أرسم مسافة تسمح بتحليل الذكريات. لكنني الآن عاجزة عن فعل شيء آخر.

يا لها من مهمَّة صعبة! بالنسبة لي، لم تكن لوالدتي قصَّة جديرة بأن تحكى. فهي لم تبرح أبدا هذا المكان. تكمن خطوتي الأولى، في حديثي عنها، في أن أعطيها صورا لا تنبني على مفهوم الزمن: «كانت عنيفة».. «كانت امرأة تحرق كل شيء»، وأن أستعرض في ذهني، دون ترتيب، مشاهد لها حيث تكون. لا أعثر هكذا إلا على المرأة التي رسمتها في خيالي، المرأة نفسها التي شاهدتها، منذ بعضة أيام، في حلمي، أراها حية ثانية، لا عمر محدد لها، في جو مشحون بتوتر شبيه بذلك التي نشاهده في أفلام الرعب. كنت أرغب أن أمسك أيضا بالمرأة التي وُجدت خارج أعماقي، المرأة الحقيقية التي ولدت في حي ريفي بمدينة صغيرة في النورماندي وتوفيت في قسم أمراض الشيخوخة في مستشفى بالمنطقة الباريسية. ما أرجو كتابته من أحداث حقيقية يقع دون شك على حدود العائلي والاجتماعي، الأسطورة والتاريخ. مشروعي ذو طابع أدبي بما أنه يتعلَّق بالبحث عن حقيقة والدتي التي يتعذر بلوغها إلا عبر كلمات. (هذا يعني أن الصور والذكريات وشهادات العائلة عاجزة على أن

تهبني هذه الحقيقة) ولكنني أتمنى أن أبقى، بطريقة ما، تحت سقف الأدب.

إيفيتو مدينة باردة، مشيَّدة على هضبة تهب عليها الرياح، تقع بين روان ولوهافر. في بداية القرن، مثّلت المركز التجاري والإداري لمنطقة فلاحية بأكملها، وهو بحوزة أكبر الملاك. كان جدي يعمل سائق عربة في إحدى الضَّيعات، بينما تشتغل جدتي بالحياكة بالبيت. استقرَّا بها بضع سنوات بعد زواجهما. كانا معا ينحدران من قرية مجاورة على بُعْد ثلاثة كيلومترات. استأجرا منزلا صغيرا واطئا ذا فناء، يقع قرب السكة الحديد، على الهامش، في منطقة ريفية ذات حدود غير ظاهرة، بين آخر المقاهي القريبة من محطة القطار وحقول السَّلجم الأولى. ولدت أمي هناك سنة ١٩٠٦، وهي الرابعة بين ستة أطفال. (يا لكبريائها عندما كانت تقول: «أنا لم أولد في الريف»!)

لم يغادر أربعة من إخوتها إيفيتو طوال حياتهم قط، بينما قضت أمي ثلاثة أرباع حياتها هناك. اقتربوا من مركز المدينة، لكنهم لم يسكنوا فيه أبدا. كانوا يقولون: «نحن ذاهبون إلى المدينة» لحضور القدَّاس، لشراء اللحم، لإرسال حوالات مالية. الآن، أصبح لقريبتي منزل في وسط المدينة الذي تخترقه الطريق الوطنية رقم ١٥ وتعبره شاحنات ليل نهار. تعطي قريبتي هذه قطَّها أقراصا منوِّمة حتى تمنعه من الخروج، خشية أن يموت دهسا. أما الحي الذي قضت فيه والدتي طفولتها، فيقبل عليه ذوو الدخل العالي لهدوئه ومساكنه ذات الطراز القديم.

كانت جدتي تفرض سلطتها على الجميع وتسهر على «ترويض» أبنائها عبر الصراخ والضرب. كانت امرأة شرسة في العمل، لا تلين بسهولة، ولا تملك أي وسيلة أخرى للترفيه عن نفسها غير قراءة الروايات المسلسلة. كانت تحسن كتابة الرسائل، حيث احتلَّت المركز الأول على المقاطعة في الشهادة الابتدائية. كان يمكن أن تصبح معلمة. لكن والديها رفضا أن ترحل عن القرية، يقينا منهما حينها أن الابتعاد عن العائلة نبع شقاء. (باللهجة النورمندية كلمة «طموح» تعني: ألم الفراق، فبمقدور كلب أن يموت بسبب الطموح). ولنفهم أيضا هذه القصة التي انغلق قوساها في سن الحادية عشرة، يجب أن نتذكر الجمل التي تبدأ بـ«قديما»: قديما لم نكن نذهب إلى المدرسة كما هو الحال الآن، تنفيذا لأوامر آبائنا، الخ.

كانت تحسن التدبير؛ أي أنها كانت تنجح، بمبلغ زهيد من المال، في أن تطعم عائلتها وتكسيها، وتصفَّ أطفالا يلبسون ملابس نظيفة وخالية من الثقوب خلال القدَّاس، وتقترب بذلك من تحقيق كرامة جعلتها تعيش دون أن تشعر بأنهم قرويون. كانت تقلب ياقات القمصان وأكمامها من أجلِ استخدامٍ مزدوج وتحتفظ بكل شيء: فروة الحليب، الخبز البائت من أجل صنع الحلويات، رماد الخشب كمسحوق للغسيل، حرارة الموقد المنطفئ لتجفيف ثمار البرقوق والممسحات، ماء الغسيل الصباحي لغسل الأيدي خلال اليوم. وهكذا بدت مُلمَّة بكل الأعمال التي تخفف الفقر. هذه المعرفة، الموروثة عبر القرون

أما عن جدة، توقَّفت عندي، أنا التي لم أكن سوى أمينة حافظة له.

فيما توفي جدِّي، وهو رجل قوي وودود، في سنٍّ الخمسين بسبب ذبحة صدريَّة. كانت والدتي تبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة وكانت تحبّه. عندما أصبحت جدتي أرملةً، ازدادت حدة طباعها، وصارت يقظة على الدوام. (صورتان تجسِّدان الذعر في ذهنها: السجن بالنسبة للذكور، والابن الشرعي بالنسبة للبنات). توقفت عن مهنة الحياكة المنزلية، وعملت بغسل الثياب وتنظيف المكاتب.

في آخر أيام حياتها، أقامت رفقة ابنتها الصُّغرى وصهرها في كوخ يفتقر للكهرباء، كان فيما مضى مطعما بالمصنع المجاور، يقع مباشرة أسفل السكَّة الحديدية. كانت والدتي تصحبني لزيارتها يوم الأحد. كانت جدتي امرأة قصيرة القامة وممتلئة، سريعة الحركة رغم عاهة لازمتها منذ الولادة جعلت ساقا تبدو أقصر من الثانية. كانت تقرأ الروايات، ولا تتكلم إلا نادرا وبشكل مباغت، وتحب احتساء ماء الحياة الذي تخلطه برواسب القهوة في الكوب. ماتت سنة ١٩٥٢.

تكاد تكون طفولة والدتي كما الآتي:

كانت شهيَّتها مفتوحة على الإطلاق. كانت تلتهم الخبز وهي عائدة من عند الخباز: «إلى حدود عمر الخامسة والعشرين، لربما أكلت البحر والأسماك».

الغرفة مشتركة بين جميع الأطفال، والسرير تتقاسمه مع شقيقة لها، تنتابها نوبات سرنمة، حيث كنا نجدها واقفة في الفناء، نائمة وعيناها مفتوحتان.

ثمة الفساتين والأحذية المتوارثة من أخت إلى أخرى، ودمية مصنوعة من المزق لعيد الميلاد، والأسنان التي نخرها الخمر المعصور من التفاح.

لكن هناك أيضا النزهات على حصان الحرث، والتزلج على البركة المتجمِّدة طوال شتاء سنة ١٩١٦، وجولات من لعبة الغميضة والقفز على الحبل، والسِّباب وأساليب الاحتقار المعتادة- مثل اللفّ والضرب على المؤخرة بيد قوية- تجاه 'آنسات' المدرسة الداخلية الخاصة.

وجود بأكمله كان بعيدا عن متناول الفتاة الريفية الصغيرة، التي اكتسبت المهارات ذاتها مثل الذكور، كنشْر الخشب وهز أشجار التفاح لقطف الثمار وقتل الدجاج بضربة مقصٍّ في البلعوم. ثمة اختلاف واحد فقط: ألا تسمح بلمس فرجها.

ارتادت المدرسة القرويَّة، مع متابعتها بين الفينة والأخرى الأعمال الموسمية والسهر على الأحوال الصحية لأشقائها وشقيقاتها. قليلة هي الذكريات التي عاشتها خارج ما تفرضه المعلِّمات من قواعد الأدب والنظافة، كالاطلاع على حالة الأظافر وياقة القمصان للتأكد من نظافتها وطلب نزع فردة حذاء (دون معرفة أي رجل عليها غسلها). لقد تجاوزها التعليم دون

أن يطبع داخلها بأي رغبة. ما من أحد كان «يدفع» أبناءه للتَّعلق بشيء ما، حيث وجب أن يكون ذلك «راسخا فيهم»، إذ لم تكن المدرسة سوى زمن يمضونه في انتظار أن يتحرروا من كفالة آبائهم. كان بإمكانهم التخلُّف عن المدرسة، إذ لم يكونوا يخسرون شيئا جراء ذلك. لكنهم لا يتخلفون عن القدَّاس، الذي يهبك، حتى وإن أحييناه أسفل الكنسية، الشعورَ، وأنت تشارك في الغنى والجمال والروح (الحلل الموشاة، والكؤوس الذهبية، والتراتيل)، بأنك لا «تعيش مثل الكلاب». تذوقت والدتي حلاوة الدين منذ وقت مبكر. إذ كانت تعاليم المسيحية المادة الوحيدة التي درستها بشغف، حيث حفظت كل الأجوبة عن ظهر قلب. (وفي وقت لاحق أيضا، بدت تلك الطريقة الباهرة والمرِحة في الاستجابة للصلوات في الكنسية كأنها لتثبت للجميع أنها تعرف).

غادرت المدرسة في سن الثانية عشرة والنصف، لا هي سعيدة، ولا حزينة، وتلك كانت قاعدة عامة.[1] في مصنع

(١) غير أن ذلك من أحابيل الحديث عن الماضي. نقرأ في جريدة *لوموند*، في عددها الصادر يوم ١٧ يونيو ١٩٨٦، فيما يتعلق بمنطقة والدتي بالنورماندي الأعلى: «ثمة تأخر في التمدرس لم يتم التغلب عليه أبدا، رغم التحسينات، وهو يواصل إحداث آثاره [...]. ففي كل سنة، يهجر سبعة آلاف شاب المنظومة المدرسية بلا تكوين. وهم ينحدرون من 'الطبقات المهمشة'، إذ لا يستطيعون الولوج إلى تدريبات تأهيلية. ونصفهم، بحسب ما يقوله متخصص في البيداغوجيا، «لا يعرفون قراءة صفحتين موضحتين لهم.»

المرغرين الذي التحقت به، عانت البرد والرطوبة، بسبب يديها المبلولتين والمصابتين بحروق الصَّقيع التي تلازمها طوال الشتاء. بعد ذلك استحالت عليها «رؤية» المرغرين. هكذا، قلما كانت تلك «المراهقة الحالمة» لكنها لم تكن تنتظر غير أماسي السبت والراتب الذي يسلَّمُ إلى الوالدة، مع الاحتفاظ فقط ببعض المال الذي يمكِّنها من شراء مجلَّة *صدى الموضة* ودقيق الأرز، والضحكات المجنونة ومشاعر الكراهية. في أحد الأيام ترك مراقب العمَّال بالمصنع لثامه يقع في حزام آلة. غير أن أحدا لم يهبَّ لنجدته واضطرَّ لأن يخلِّص نفسه بنفسه. كانت أمي تقف بجانبه. كيف يمكن أن تقبل بذلك، إن لم تكن قد تحملت وطأة مماثلة من الضياع؟

مع انتعاش حركة التصنيع في العشرينيات، ازدهرت صناعة الحبال التي اجتذبت كلَّ شباب المنطقة. والدتي، مثلها مثل شقيقاتها وشقيقيْها وقع تشغيلها في هذا المجال. وطلبا للمزيد من الراحة، انتقلت جدَّتي للسكن بمنزل صغير استأجرته على بعد بضعة أمتار من المصنع حيث كانت تقوم بتنظيفه مساء برفقة بناتها. أعجبت والدتي بنفسها وهي داخل هذه الورشات النظيفة والجافة، تلك التي لا يمنع فيها أحد من الحديث أو الضحك أثناء العمل. كانت فخورة بكونها عاملة في مصنع كبير، كأنها شخصٌ متحضِّر مقارنة بشخص متوحش أو فتيات الريف راعيات البقرات، وحرةٌ في نظر العبيد وخادمات المنازل البورجوازية المرغمات على «خدمة مؤخرة الأسياد». لكنها كانت تحس بكل

ما كان يفصلها، على نحو مبهم، عن حلمها بأن تصبح: سيدة متجر.

كانت عائلة والدتي أشبه بقبيلة، مثل الكثير من العائلات المتعددة الأفراد. يعني أن جدتي وأبناءها كانوا يتصرَّفون ويعيشون وضعهم العمالي كأشباه القرويين. وهو ما يمثل علامة فارقة تسمح بالتعرف عليهم. كان «آل د. . .» يصرخون جميعهم، رجالا ونساء، وفي كل الظروف. وهم مرحون إلى أبعد الحدود، لكنهم مرتابون يغضبون بسرعة، ويقولون ما عليهم قوله على نحو عفوي وفظ. فوق ذلك كله، فهم فخورون بقوتهم في العمل. إذ ليس من السَّهل عليهم أن يقبلوا بأن يكون أحدٌ ما أكثر شجاعة منهم. وبالنظر لما يحيط بهم من قيود، فهم لا يكفُّون على عدم اعتبار أنفسهم أشخاصا مهمِّين. وهو يفسِّر ربما النقمة التي تجعلهم ينقضون على كل شيء، على العمل والطعام والضحك حدَّ ذرف الدموع، إلى أن يعلن أحدهم بعد مرور ساعة قائلا: «سأذهب لأغتسل في الصهريج.»

كانت والدتي، من بينهم جميعا، أشدَّهم عنفا وكبرياء وذكاء متَّقدا تحوَّل إلى تمرُّد على وضعها المتدني داخل المجتمع ورفضها أن تعامل من خلاله. إحدى تأملاتها المتواترة حول الأغنياء تتمثَّل في قولها: «نحن نستحق هذا». كانت امرأة جميلة شقراء ذات بنية قوية («ودوا لو يشترون صحتي!») وعينان رماديتان. كانت تهوى قراءة كل ما يقع بين يديها، وتغني

الأغاني الجديدة، وتتجمل وترتاد السينما والمسرح برفقة أصدقاء لمشاهدة فيلم روجيه لاهونت ومعلم *الحدادة*، مستعدَّة دوما «لأن تستمتع».

ولكن في فترة وبمدينة صغيرة يقتضي فيهما جوهر الحياة معرفة الآخرين ما أمكن وفرض رقابة دائمة وطبيعية على سلوك النساء، تجد المرأة نفسها موزعة بين الرغبة في «الاستمتاع بشبابها» والخوف من «ويل الإشارة إليها بالأصابع». بذلت والدتي كل ما في وسعها لتكون تصرفاتها في مستوى النظرة المثالية التي يحملها الآخرون على العاملات بالمصنع كأن يقال: «إنها عاملة لكنها جادة»، بمواظبتها على حضور القداس، وتناول القربان المقدس والخبز المبارك، وحياكة جَهازها في دار الأيتام، والامتناع دائما عن الذهاب إلى الغابة وحدها برفقة شاب. لكنها تجهل أن تنانيرها القصيرة وشعرها المقصوص على نمط الذكور، وعيناها «الوقحتان»، وخاصة عملها مع رجال، كانت كلها كافية لتمنعها من أن يعتبرها الناس كما تود أن تكون: «فتاة شابة كما يجب».

قضَّت والدتي جزءا من شبابها في بذل مجهود للإفلات من قبضة مصيرٍ كان هو الأرجح؛ مصير الفقر بكل تأكيد، وربما الكحول؛ والانفلات من كل ما يحصل لعاملة عندما «تستسلم» (التدخين، مثلا، أو التسكُّع مساء في الشارع، والعودة ببقع على ثيابها) ولا يعود هناك أي «شاب جادّ» يرغب فيها.

لم يُفلت أشقّاؤها وشقيقاتها من قبضة القدر القاسية. فقد مات أربعة منهم خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة. ومنذ أمد بعيد، كانت الكحول هي التي تحدُّ من غضبهم الحاد. الرجال للمقهى والنساء للمنزل (وحدها الأخت الصغرى التي لم تكن تحتسي الكحول، ما تزال على قيد الحياة). اختفى المرح والكلام من حياتهم إلا في حالة بلوغ درجة معينة من السكر. أما في ما تبقى من الأوقات، فقد كانوا يكدُّون في صمت، «كعمال جيدين» و«عاملات نظافة لا غبار عليهن». وبمرور السنوات، اعتادوا على أن لا يقيِّموا أنفسهم إلا من خلال نظرة الناس إلى الشراب. «أن تكون على مايرام»، «أن تتلقى لكمة على الأنف». التقيت، عشية ذات عيد عنصرة، بخالتي «م...» وأنا عائدة من المدرسة. ومثلما جرت عادتها أيام الراحة، كانت ذاهبة إلى المدينة حاملة حقيبتها المملوءة بالقنينات الفارغة. قبَّلتني دون أن تنبس ببنت شفة، وهي تتأرجح في مكانها. أعتقد أنه لن أقوى أبدا على الكتابة كما لو أنني لم ألتق خالتي في ذلك اليوم.

كان الزواج يمثل، بالنسبة للمرأة، الحياة أو الموت، يمثل الأمل في النجاح كزوجين أو الغرق النهائي. هكذا، كان من الضروري التعرُّف على الرجل القادر على أن «يسعد المرأة». بالطبع، لا يوجد شاب على وجه البسيطة، حتى وإن كان ثريا، سيجعلك تحلبين البقر في قرية بلا كهرباء. كان والدي يعمل في صناعة الحبال. وهو رجل فارع الطول، أنيق و«بسيط». لا

يشرب الكحول، ويحتفظ بمرتَّبه كاملا كي يقضي حاجيات منزله. كان ذا طبع هادئ ومرح. كان يكبر والدتي بسبع سنوات. (ألا نصطفي لنا «صبيا وقحا»؟). كانت تروي بثغر باسم، ووجهها يحمر خجلا: «كنت امرأة مرغوبة من قبل الرجال، وقد طُلبت للزواج عدة مرات، لكنني اخترت أباك». وغالبا ما تضيف: «لقد كان مختلفا».

حكاية والدي تشبه حكاية والدتي. فهو ينحدر من عائلة متعدِّدة الأفراد. والده سائق عربة، ووالدته نسّاجة. غادر المدرسة في سنِّ الثانية عشرة ليشتغل هنا في الحقول كخادم في ضيعة. فيما نجح شقيقه الأكبر في أن يحوز منصبا كبيرا في السكك الحديدية. تزوَّجت شقيقتان له بمستخدَمين في متجر. وبما أنهما عملتا سابقا كعاملتي بيوت، فقد تعلَّمتا الحديث دون صراخ، والمشي بتمهُّل، وتفادي لفت الأنظار. اكتسبتا المزيد من «الوقار»، لكنهما أظهرتا أيضا نزعة لازدراء عاملات المصنع، كوالدتي التي كانت هيئتها وتصرُّفاتها تذكرانهما كثيرا بالعالم الذي كانتا بصدد هجرانه. بالنسبة إليهما، كان بود والدي أن «يجد زوجة أفضل منها».

تزوجا سنة ١٩٢٨.

بدا وجه والدتي، في صورة الزِّفاف، مألوفا مثل السيدة العذراء، وشاحبا، تتدلى خصلتان معقوصتان على الجبين، من تحت غطاء يلف الرأس وينزل حتى عينيها. كان لها نهدان مكتنزا ووركان ممتلئان وساقان جميلتان (فستانها لا يغطي الركبتين). لا

ابتسامة تعلو محياها، بل مجرَّد تعبير هادئ، وشيء ما في نظرتها يبعث على المرح والفضول. أما هو، فكان ذا شارب صغير، يضع ربطة عنق الفراشة، لكنه يبدو أكبر من سنِّه. يقطِّب الحاجبين، وتظهر عليه سيماء القلق، خشية ربما من أن تُلتقط الصورة بشكل سيء. كان يمسك بها من خصرها، بينما تضع هي يدها على كتفه. كان واقفين في طريق على طرف ساحة يكسوها عشب مرتفع. خلفهما كوَّنت أوراق أشجار التفاح الملتفة قبَّة. ومن بعيد تلوح واجهة منزل واطئ. إنه مشهد نجحتُ في استشعاره: تراب الطريق الجاف، الحصى الأملس، رائحة القرية في بداية الصيف. لكنها ليست والدتي. حاولت عبثا تأمُّل الصورة طويلا إلى أن استحوذ عليَّ شعورٌ صاعق يجعلني أعتقد أن الوجوه تتحرَّك، ولا أرى إلا امرأة ناعمة شبيهة بشخصية سينمائية في فترة العشرينات. إلا أن يدها الضخمة الممسكة بالقفازات وطريقتها في رفع رأسها إلى الأعلى تنبآني بأنها هي والدتي.

أكاد أكون واثقة من بهجة هذه الشابة المتزوجة وكبرياؤها. إلا أنني لا أعرف شيئا عن رغباتها. في المساءات الأولى- وهذا ما أسرَّت به شقيقة لها- لجأت إلى الفراش دون أن تنزع تُبَّانها الذي تلبسه تحت قميص النوم. هذا لا يعني شيئا. فالحب لا يمارس إلا في مأمن الفضيحة، لكن يجب أن يمارس، بالطبع، عندما يكون الأشخاص «أسوياء».

في البداية، كان الإغراء يكمن في لعب دور سيدة تعيش حياة مستقرة، تدشين غسالة الصحون، غطاء الطاولة الموشى الذي جلبته ضمن جَهازها، الخروج ممسكة بذراع «زوجها»، القهقهات، المشاحنات (علما أنها لا تحسن الطبخ)، المصالحات (رغم أنها مرحة على الدَّوام)، والانطباع بأنها تعيش حياة جديدة. لكن الأجور لم تعد ترتفع. وأمامهما مصاريف الكراء وأقساط الأثاث. اضطرا للاهتمام بكل شيء، كطلب الخضار من أبويهما، (بما أن لا يملكان حديقة)، وفي آخر المطاف، كانت حياتهما كما كانت من قبل، لكنهما كان يعيشانها على نحو مختلف. في أعماقهما معا، ولدت رغبة النجاح، لكن كان ينتابه خوف أكبر أمام كفاح المبادرة وإغراء الاستسلام لمصيره، بينما هي كانت مقتنعة أن ليس لديهما ما يخسرانه ويجب عيهما أن يبذلا كل شيء في سبيل أن يتجاوزا هذه المحنة «بأي ثمن». كانت فخورة بكونها عاملة، لكن ليس إلى حدٍّ أن تظل على حالها ذاك إلى الأبد، حالمةً بخوض المغامرة الوحيدة التي تليق بها: أن تتخذ متجرا لبيع المواد الغذائية. وافقها على ذلك. فتحققت إرادة الزوجين الاجتماعية.

في سنة ١٩٣١، اشتريا بالدَّين محلا لبيع المشروبات والمواد الغذائية في 'ليلبون'، وهو حي عُمَّالي يضمُّ ٧٠٠٠ ساكن ويبعد خمسا وعشرين كيلومترا عن إيفيتو. يقع المقهى- الدكان في منطقة لافالي التي تضم مصانع للغزل تعود للقرن التاسع عشر

وينضد وقت الناس ووجودهم من الولادة حتى الوفاة. وإلى اليوم، يقصد بـ«لافالي ما قبل الحرب»، عند الحديث عنها، أكبر تجمع لمدمني الكحول والأمهات العازبات، حيث الرطوبة تسيل على الجدران، والرضَّع الذين يموتون جرَّاء الإسهال الأخضر في ظرف ساعتين. كانت والدتي تبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة. هناك كان عليها أن تصبح ما هي عليه الآن، بهذا الوجه وهذه الأذواق وأنماط العيش التي طالما كانت نابعة منها.

بما أن المال لا يكفي ليعيشا حياة كريمة، فقد اشتغل والدي في ورشات البناء، ثم لاحقا في معمل للتَّكرير يقع بمنطقة 'راس سين'، حيث ارتقى إلى رتبة مراقب. كانت تدير المتجر وحدها.

سرعان ما انخرطت فيه «بشغف» «والابتسامة لا تغادر محيَّاها» «موجِّهة كلمات لطيفة للجميع»، مُبدية صبرا لا متناهيا يدفعها إلى القول: «كان عليَّ أن أبيع الحصى!» وفجأة وجدت نفسها فريسة لبؤس صناعيٍّ كان في شدة قسوته شبيها بذاك الذي عرفته سابقا. ووعيا منها بالوضع، سعت إلى كسب قوتها من خلال أشخاص هم أنفسهم عاجزون عن جنيه.

ودون شك، لم تحظ بلحظة واحدة لنفسها، وهي تنتقل بين الدكان والمقهى والمطبخ حيث أخذت في العناية بابنة صغيرة وُلدت بعد إقامتها بلافالي بوقت قصير. كانت تفتح المحلَّ من الساعة السادسة (من أجل عاملات مصانع الغزل اللواتي يشترين الحليب) وحتى الساعة الحادية عشر ليلا (من أجل لاعبي الورق والبيليارد) ويحدث أن «يزعجها»، في أي لحظة، زبناء اعتادوا

العودة، عدة مرات في اليوم، بغية الحصول على عمولات. كانت تتجرَّع المرارة كي تكسب أكثر من عاملة في مصنع، مثلما تساورها الوساوس حول «الفشل» في ذلك. لكنها منحتها أيضا سطوة معينة. ألم تكن تساعد عائلات على كسب قوتهم عبر إقراضهم؟- بينما متعة الحديث والإنصات- طالما أن حيوات كثيرة تروى في الدكانِ- تمثل سعادة غامرة لعالم شاسع.

ثم كانت «تتطوَّر» أيضا. صارت مجبرة على الذهاب إلى كل مكان (إلى إدارة الضرائب، إلى البلدية) واللقاء بالمستثمرين والممثلين. تعلمت أن تراقب نفسها وهي تتحدث، ولم تعد تخرج دون أن «تصفف شعرها». بدأت تتساءل، قبل شراء فستان، عما إذا كان «أنيقا». أخذ الأمل يحدوها، ثم تحوَّل إلى يقين بعدم «الانخراط في أي حملة سياسية». كانت تقرأ، إلى جانب مؤلَّفات ديلي والأعمال الكاثوليكية التي ألفها بيير ليرميت، كتب بيرنانوس ومورياك و«القصص الخليعة» لكوليت. أما أبي، فلم يتطوَّر بذات السُّرعة مقارنة بها، حيث ظلَّ محافظا على حدَّته الخجولة، كمن يعمل نهارا ولا يستشعر مكانه الحقيقي ليلا، وهو صاحب مقهى.

حلَّت سنوات الأزمة الاقتصادية السوداء والإضرابات، وبْلوم [١] الرَّجل الذي «وقف أخيراِ في صفِّ العمال»، والقوانين

(١) ليون بلوم: سياسي فرنسي (١٨٧٢-١٩٥٠).

الاجتماعية، والحفلات حتى ساعة متأخِّرة من الليل، وعائتها التي تأتي لزيارتها فتفرش من أجلهم أسرّة في الغرف كلها، ثم يعودون محمَّلين بأكياس مليئة بالمؤن. (إنها معطاءة. أليست الوحيدة التي تغلَّبت على الفقر؟) ثم حصل «شقاق» مع عائلة زوجها وما سبَّبه من ألم. كانت ابنتهما الصغيرة عصبيَّة ومرحة. تبدو في صورة أكبر من سنها. لها ساقاها دقيقتان، وركبتان بارزتان. تضحك واضعة يدها على جبينها كي تحمي عينيها من أشعَّة الشمس. وفي صورة أخرى، تقف إلى جانب إحدى قريباتها في مناولة القربان المقدَّس، وهي في غاية الجد، تتلاعب من حين إلى آخر بأصابعها المتباعدة أمامها. في سنة ١٩٣٨، ماتت بسبب الدفتيريا، قبل ثلاثة أيام من عيد الفِصح. لقد كانا يرغبان في إنجاب طفل واحد حتى يكون أسعد منهما.

وحده الصَّمت الذي خلَّفه الوهن العصبي والصَّلوات والاعتقاد بوجود «قدِّيسة صغيرة في السماء» غلَّف ألم الفقدان. ثم عادت الحياة من جديد في مستهل سنة ١٩٤٠، حيث كانت تنتظر مولودا جديدا. سأولد أنا في سبتمبر.

يبدو لي الآن أنني أكتب عن والدتي حتَّى ألدها أنا بدوري.

بدأت منذ شهرين بالكتابة على ورقة: «توفِّيت والدتي يومَ الاثنين، في السَّابع من أبريل». إنها جملة صار باستطاعتي احتمال وقعها لاحقا، أو حتى قراءتها دون شعور بانفعال مغاير

عن ذاك الذي كان سيغمرني لو كتب هذه الجملة شخص آخر. لكنني لا أحتمل الذهاب إلى الحي الذي يقع فيه المستشفى ومأوى العجزة، ولا أتذكَّر بقسوة تفاصيل آخر يوم في حياتها التي كنت نسيتها. في البداية، كنت اعتقدت أنني سأكتب بسرعة. وها أنا، في الواقع، أقضي وقتا طويلا في التساؤل حول ترتيب الأشياء التي عليَّ قولها، وفي اختيار الكلمات وترتيبها، كأن ثمة ترتيب مثالي لها، هو القادر وحده على إبراز حقيقة معينة تخص والدتي- لكنني أجهل كنهها- ولا شيء يكتسي أهمية ما عندي لحظة الكتابة غير العثور على هذا الترتيب.

عندما هاجرت، سارت عبر الطرقات حتى وصلت إلى مدينة نْيور رفقة بعض جيرانها. كانت تنام في المزارع، وتحتسي «خمرة تلك المناطق الرَّخيصة»، ثم عادت بمفردها على الدَّراجة عابرة الحواجز الألمانية لتلد في المنزل بعد مرور شهر. لم يبد عليها أيُّ شعور بالخوف، لكنها كانت جدُّ متَّسخة عندما حتى أن والدي لم يعرفها.

إبان الاحتلال، تجمَّع سكان لافالي حول دكانهما أملا في الحصول على المؤن. كانت تبذل جهدا كبيرا لإطعام الجميع، خاصة العائلات الكثيرة الأفراد، رغبة منها وكبرياء في أن تكون طيِّبة ومفيدة. وخلال القصف، كانت ترفض الاحتماء بالملاجئ الجماعيَّة المحاذية للتَّلة مفضِّلة «الموت في منزلها». وبعد كل فترة ظهيرة، كانت تجول بي في عربتي بين صفارتَي إنذار حتى

تكسبني القوَّة. إنه زمن الصَّداقات السَّهلة، إذ ما أن تجلس على مقعد بالحديقة العامة، حتى تنشأ صداقة بينها وبين شابات رزينات يشتغلن بالتَّطريز، بينما يحرس والدي الدكان الخالي من الزبائن. دخل الإنجليز والأمريكان إلى 'ليلبون' وعبرت الدبَّابات لافالي، ملقية بالشوكولا وأكياس دقيق البرتقال التي كان الناس يلتقطونها معفَّرة بالغبار. وفي كل الآماسي، كان المقهى يمتلئ بالجنود، فيتشاجرون أحيانا، لكن يحتفلون ويتقنون التلفظ بـ«شيت فور يو».[1] بعد ذلك، كانت تروي عن سنوات الحرب كأنها رواية، مغامرة حياتها العظمى. (لطالما أحبت رواية ذهب مع *الريح*).[2] ربما، تكمن في التعاسة المشتركة استراحة ما من الكفاح من أجل النجاح، الذي صار بلا جدوى لاحقا.

كانت امرأة تلك السنوات جميلة بمسحة صهباء. تملك صوتا قويًّا وجهوريا، إذ غالبا ما تصرخ بنبرة مرعبة. تضحك كثيرا أيضا، ضحكا ينبع من أعماق حنجرتها ويكشف عن أسنانها ولثَّتها. وتغني وهي تمرر أسطوانات زمن *الكرز وريكتا*، وزهرة *يافا الجميلة*. وترتدي عمائم وفستانا صيفيا ذا خطوط زرقاء، وفستان آخر رخوا ذا لون بني فاتح ونقوش. وتضع المسحوق برشَّاش البودرة أمام المرآة المعلَّقة فوق مغسل الأواني، وتمرِّر أحمر الشِّفاه من أعلى شفتيها إلى أسفلها وترشُّ العطر خلف أذنيها. كانت تلتفت، لتشبك مشدَّها، نحو الحائط. يخرج جلدها

---

(١) وردت في النص الأصلي كما يلي: "shit for you".

(٢) رواية للكاتبة الأمريكيَّة مارغريت ميتشل تحوَّلت إلى فيلم سينمائي.

من بين الأربطة المشبَّكة والمربوطة بعقدة ووريدة في الأسفل. لم أنس تفصيلا واحدا من جسدها. كنت أعتقد أنني عندما أكبر سأصبح نسخة عنها.

ذات يوم أحد، كانا يتنزهان على حافَّة منحدر، قرب الغابة. وكذكرى لوجودي بينهما أجدني في عُشٍّ من الأصوات واللحم والقهقهات المتواصلة. عند عودتنا، داهمنا القصف. كنت جالسة على قضيب درَّاجة والدي، فيما تنزل هي التلَّة منتصبة على السَّرج المنغرس في ردفيها. كنت خائفة من القذائف، ومن موتها. يبدو لي أنني ووالدي كنا عاشقين لأمي.

في سنة ١٩٤٥، غادرا لافالي حيث كان السُّعال لا يفارقني ولا أُشفى بسبب الضباب. عادا إلى إيفيتو. صارت الحياة بعد الحرب أشدَّ ضنكا من الحرب ذاتها. إذ تواصلت القيود، وظهر «الأثرياء الجدد من تُجَّار السوق السوداء». وفي انتظار الظَّفر بعقار تجاري جديد، كانت تجول بي في شوارع وسط المدينة المدمَّر والمليء بالأنقاض. وتأخذني للصَّلاة في المصلَّى الذي يقع في قاعة عروض بدل الكنيسة التي حُرقت. أما أبي، فكان يعمل على سدِّ الحفر التي خلَّفتها القنابل. كانا يسكنان حجرتين بلا إنارة تحويان أثاثا فُكَّت أجزاؤه وصُفَّت على الجدران.

بعد مرور ثلاثة أشهر، عادت للعيش في حيٍّ نجا من براثن الحرب، بعيدا عن وسط المدينة، كصاحبة مقهى- دكان شبه قروي. كان المحلُّ عبارة عن مطبخ صغير، وفي الطَّابق الأول

غرفة ومخدعين من أجل الأكل والنوم بعيدا عن عيون الزبناء. لكن المنزل كان يتوسَّطه فناء كبير وحظائر لتخزين الخشب والتبن والقش وعصارة، وخصوصا لاستقبال صنف من الزبناء الذين يدفعون نقدا. في الوقت الذي كانت أمي تسهر على شؤون المقهى، كان أبي يعتني بحديقته، يربي الدجاج والأرانب ويصنع خمر تفاح نبيعه للزبائن. بعد أن قضى عشرين سنة عاملا، عاد ليزاول نمط عيش شبه قروي. كانت أمي تعتني بالدكان والطلبات والحسابات، وتتحكم في المصروف. وشيئا فشيئا، نجحا في أن يعيشا وضعا أفضل من وضع العمَّال المحيطين بهما. فتمكنا مثلا من أن يمتلكا محلا تجاريا ومنزلا صغيرا واطئا مجاورا له.

في الأصياف الأولى، وخلال الإجازات، يأتي زبائن من 'ليلبون' لزيارتهما مصطحبين عائلاتهم في الحافلة. كانوا يتبادلون القبل ويبكون. يتحلقون حول طاولات المقهى قصد الأكل، ويغنون ويستعيدون ذكريات الاحتلال. ثم توقفوا عن الزيارة في بداية الخمسينات. كانت تقول: «هذا من الماضي يجب أن نتقدم إلى الأمام».

ومن صورها، وهي بين سن الأربعين والسادسة والأربعين:

ذات صباح شتائي، تجرأت على اقتحام قاعة الدرس ومطالبة المدرِّسة بإيجاد الوشاح الصوفي الذي نسيتُه في الحمام والذي كلَّفها ثمنا غاليا. (لم أنس ثمنه أبدا).

وذات صيف، على شاطئ البحر، اصطادت بلح البحر في

فيل-لي-روز رفقة نسيبة لها تصغرها سنا. رفعت فستانها البنفسجي ذي الخطوط السوداء، وعقدته من الأمام. وفي مرات عديدة، ذهبتا معا لتناول مقبلات وحلوى في مقهى يقع في كوخ قرب الشاطئ وتضحكان دون توقف.

وفي الكنيسة، كانت تغني ملء صوتها ترنيمة العذراء *سأذهب لرؤيتها يوما ما في السماء*، في السماء. كان هذا اللحن يولِّد في أعماقي رغبة في البكاء، فدفعتني إلى كرهها.

كانت تملك فساتين ألوانها منعشة وبذلة سوداء ذات «حبيبات ناعمة». تقرأ مجلتي *الأسرار* و*موضة اليوم*. وتضع مناشفها المنقوعة بالدم في ركن من غرفة الطابق الثاني حتى يوم الثلاثاء، اليوم المخصَّص للغسيل.

وعندما أحدِّق فيها طويلا تغضب وتقول: «هل تريدين شرائي»؟

في ظهيرة يوم الأحد، كانت تنام مرتدية قميصا نسائيا داخليا دون أن تنزع جواربها. كانت تسمح لي بالنوم إلى جانبها في السرير. وبينما هي تغرق في النوم بسرعة، أظل أقرأ، كامنة خلف ظهرها.

وحدث أن أسرفَت في الشُّرب خلال القربان المقدَّس لدرجة أنها تقيَّأت كل ما في جوفها إلى جانبي. صرت أراقب، في كل حفلة بعد ذلك، ذراعها الممدودة على الطَّاولة والممسكة بالكوب، راجية بكل ما أوتيتُ من قوَّة ألا ترفعه.

أصبحت أمي قوية البنية بعد أن بلغ وزنها تسعا وثمانين كيلوغراما. كانت تأكل بشراهة وتحتفظ دائما بقطع سكر في جيب مئزرها. وحتى تنحف ابتاعت أقراصا من صيدليَّة برُوان[١] تناولتها خُفية عن والدي. حرمت نفسها من الخبز، لكن وزنها لم ينقص سوى عشرة كيلوغرامات.

كانت تصفق الأبواب وتخبط الكراسي حين تكوّمها على الطاولات من أجل كنس الأرضية. كل ما تفعله كان يتم بصخب. لم تكن تضع الأشياء، بل كانت تلقي بها.

ومن خلال ملامح وجهها نعرف، على الفور، ما إذا كانت مستاءة. وعندما تكون مع العائلة، كانت تقول كل ما تفكر فيه بكلمات مباغتة. تسميني جملا، أو تنادي علي بالقذرة، أو «الفتاة البشعة»، أو ببساطة «القبيحة». كانت تضربني لأتفه الأسباب، تلطمني خصوصا، وتسدد لي أحيانا لكمات على الكتف. («كنت سأقتلها لو لم أتماسك نفسي»). لكنها، بعد أن تمضي خمس دقائق، كانت تضمَّني بين ذراعيها، وتدعوني «دميتها».

كانت تمنحني لعبا وكتبا في كل مناسبة أو احتفال أو مرض أو نزهة في أرجاء المدينة. تصحبني إلى طبيب الأسنان وَأخصائيِّ القصبات الهوائيَّة، وتسهر على أن تقتني لي أحذية جيدة وألبسة صوفية وكل اللوازم الدراسية التي تطلبها المعلِّمة

---

(١) عاصمة النورماندي في فرنسا.

(وأدخلتني مدرسة داخلية بدل المدرسة البلدية). عندما أرى أن إحدى رفيقاتي تملك لوحة غير قابلة للكسر، تسألني على الفور ما إذا كنت أرغب في الحصول على واحدة مثلها، ثم تقول: «لا أريد أن يقال أنك أقل شأنا من الآخرين». كانت أعمق رغبة لديها تكمن في هي أن تهبني كل ما حُرِمَت منه. لكن هذا كان يعني لها بذل مجهود في العمل، واهتماما كبيرا بالجانب المالي، وانشغالا برفاه الأبناء المختلف تماما عما كانت عليه التربية في السابق، حتى إنها لا تلبث أن تخلص إلى القول: «أنت تكلِّفيننا الكثير» أو «مع كل ما تملكينه، أنت لست سعيدة».

أحاول ألا أعتبر عنف والدتي وفيض حنانها وملاماتها طبعا متأصِّلا فيها، وإنما أصنِّفها كذلك ضمن تاريخها ووضعها الاجتماعي. فأسلوب الكتابة هذا، الذي يبدو لي أنه ينحو نحو معنى الحقيقة، يساعدني على التغلُّب على الوحدة وعتمة الذكرى الفرديَّة، باكتشاف دلالة أكثر شُمولا. غير أنني أشعر أن شيئا ما بداخلي يقاوم، ويودُّ أن يحتفظ بصور عاطفية خالصة عن والدتي، دفئها أو دموعها، دون أن يضفي عليها معنى ما.

كانت أمًّا تاجرة؛ أي أنها تنتسب أولا إلى الزبائن الذين «كانوا يوفِّرون لقمة عيشنا». كان يمنع إزعاجها، وهي تلبي طلباتهم (كالانتظار خلف الباب الذي يفصل الدكان عن المطبخ من أجل أخذ خيط الحياكة أو طلب الإذن للخروج إلى اللعب،

الخ.). وإذا سمعت ضجيجا شديدا، تخرج وتصفعني دون أن تقول كلمة واحدة ثم تعود لخدمة الزبائن. بدأت تشركني، في وقت مبكر جدا، في احترام قواعد ينبغي مراعاتها أثناء التعامل من الزبائن، كأن أقول «صباح الخير» بصوت واضح، وألا آكل، وألا أتشاجر أمامهم، وألا أنتقد أحدا، وكذا الحذر الذي يجب أن يوحوا به، وعدم تصديق كل ما يروونه ومراقبتهم سرا عندما يكونون بمفردهم في المتجر. كانت تملك وجهين؛ أحدهما للزبائن والثاني لنا نحن. عندما يرنُّ جرس الباب، تدخل إلى «المسرح» باسمة، صوتها هادئ وجاهز لطرح الأسئلة المعتادة حول الصحة والأطفال والحديقة. وما إن تعود إلى المطبخ حتى تنمحي تلك الابتسامة وتظل للحظة واجمة ومرهقة من أداء دور تختلط فيه مشاعر الابتهاج والمرارة في بذل مجهود من أجل أشخاص كانت تشك في أنهم سيتركونها لو «وجدوا محلاً أرخص ثمنا».

كانت أما يعرفها الجميع، امرأة عمومية إجمالا. في المدرسة الداخلية، عندما أقوم إلى للسبورة وأُسأل: «لو أن والدتك تبيع عشر علب قهوة بثمن باهظ»، وغير ذلك (وطبعا هذه الحالة الثانية، الواقعية هي الأخرى، لن تحصل أبدا: «لو أن والِدتك تقدِّم ثلاثة مقبلات بثمن باهظ»).

لم تكن تجد الوقت الكافي إطلاقا للطبخ أو العناية بالمنزل «كما يجب»، كأن تخيط لي زِرًّا على ثيابي قبل الذهاب إلى المدرسة مباشرة، أو تكوي القميص على طرف طاولة في اللحظة

التي سترتديه فيها. كانت تفرك البلاط في الساعة الخامسة صباحا، وتفرّغ البضائع. وفي الصيف، كانت تقلّب تربة أحواض أشجار الورد قبل أن تفتح المتجر. كانت تعمل بكدٍّ وسرعة، تستشعر فخرا كبيرا من خلال قيامها بمهام شاقة، لكنها كانت، في المقابل، تستاء من غسيل الثياب الثقيلة وصقل أرضيَّة الغرفة مثلا بالمكنسة الحديدية. كان يتعذر عليها أن ترتاح وتقرأ دون تبرير ذلك، كأن تقول مثلا: «أنا أستحق الجلوس» (كما كانت تخفي روايتها تحت حزمة من الثياب المخصَّصة للرَّتق عندما تقاطعها إحدى الزبونات). لم تكن شجاراتها مع والدي تخفي إلا سببا واحدا وهو كمِّية العمل الذي يبذله أحدهما مقارنة بالآخر. كانت تحتج قائلة: «أنا من يقوم بكل شيء هنا».

لم يكن أبي يقرأ إلا الصَّحيفة الجهويَّة. ويرفض الذهاب إلى الأماكن التي لا يشعر فيها أنه في «مكانه المناسب»، ويقول عن أشياء عديدة أنها ليست له. كان يحب العمل في الحديقة، ولعب الدومينو والورق وترقيع الأشياء. لم يكن يبالي بـ «بإتقان الكلام»، لهذا واصل استعمال تعابير من اللغة العامية. أما والدتي فقد كانت تحاول تجنُّب ارتكاب الأخطاء في اللغة الفرنسية. فهي لا تقول مثلا «زوجي»، وإنما «بعلي». وأحيانا تجازف خلال المحادثة باستعمال تعابير لم نعتد عليها، سبق أن قرأتها أو سمعتها من «أناس راقين». تردُّدُها، وحمرة الخجل التي تعلو وجهها خوفا من أن ترتكب خطأ، ضحكات والدي

الذي أصبح بعد ذلك يهزأ من «حديثها المنمَّق». . كل هذا لم يكن ليؤثِّر بها. فما إن تستجمع ثقتها بنفسها حتَّى يروق لها تكرار تلك العبارات المُنمَّقة، وهي تبتسم كلما نطقت بمقارنات تشعر بأنها بليغة من قبيل: (هو يحمل قلبه في وشاح) (نحن لسنا إلا عصافير عابرة. . .) كما لو أنها تسعى إلى محو الادِّعاء على لسانها. كانت تحب كل ما هو «جميل»، كل ما هو «منمَّق»، متجر الربيع الذي يبدو أكثر أناقة من الأروقة الجديدة. وهي، بالطبع، أشد افتتانا منه بالسجَّادات واللَّوحات المعلَّقة في عيادة طبيب العيون. مع ذلك، كانت تسكنها رغبة دائمة في تجاوز ارتباكها. وكانت إحدى عباراتها المتكررة هي التالية: «لقد بلغت جرأتي درجة من الوقاحة» (من أجل القيام بهذا أو ذاك). كانت تردّ على ملاحظات والدي حول زينتها الجديدة، أو تجمُّلها المتقن قبل الخروج، بزهو: «عليك أن تحافظ على مكانتنا جيدا!»

كانت ترغب في تعلُّم قواعد اللَّياقة (إذ تنتابها خشية كبيرة من الافتقار إليها والشك المتواصل حول العادات الجارية)، وما يحدث من مستجدات، وأسماء الكُتَّاب الكبار، والأفلام المعروضة حديثا على الشاشات (لكنها تكن تذهب إلى السينما لضيق الوقت)، وأسماء الزُّهور في الحدائق. تنصت باهتمام إلى الناس وهم يتحدثون عن أشياء تجهلها، إما فضولا منها أو رغبة في أن تظهر لهم أن ذهنها منفتح على المعارف. فالارتقاء عندها

هو التعلُّم أولا (كانت تقول: «عليك أن تؤثث ذهنك») ولا شيء أجمل من المعرفة. ولهذا كانت الكتب هي الأشياء الوحيدة التي تستخدمها بحذر، حتَّى أنها كانت تغسل يديها قبل أن تلمسها.

تابعت رغبتها في التعلُّم من خلالي. في المساء وهي جالسة على المائدة كانت تدفعني إلى الحديث عن مدرستي وكل الأشياء التي أدرسها، وعن الأساتذة. وكانت تجد متعة في استعمال عباراتي المختصرة التي تعبر عن «الاستراحة» «المعلِّمين» أو «الجمباز». كان يبدو لها عاديا أن «أصحح لها» عندما «تقلب كلمة ما». لم تعد تسألني ما إذا كنت أرغب في «أكل لمجة» وإنما «وجبة سريعة». وكانت تصحبني إلى رُوان لزيارة المآثر التاريخية والمتحف، وإلى مدينة فيلوكيي لزيارة أضرحة عائلة هوغو[١]. وهي مستعدة دائما للإعجاب بالأشياء التي تراها. تقرأ الكتب التي أقرؤها، الكتب التي ينصح بها المكتبي. ولكنها كانت تضحك، وهي تتصفح أحيانا كتاب *القنفذ* الذي نسيه زبون، ثم تقول: «إنه سخيف ومع ذلك نقرأه». (ربما كانت، خلال مرافقتي إلى المتحف، تشعر بالرضا وهي تدفعني نحو معارف وأذواق تعرف مُسبقا أنها تخص المثقفين أكثر من شعورها بالسرور لرؤية المزهريات الفرعونية، شاهدات القبور في الكاتدرائيات. فضلا عن ذلك، كان الاطلاع على تماثيل الكنيسة، وقراءة ديكينز

(١) الكاتب الفرنسي الشهير فيكتور هوغو.

ودوديه[١]، عوضا عن كتاب *المُسارَّات* الذي هجرته يوما ما، دون شك، يروم سعادتي أنا أكثر من سعادتها هي).

كنت أعتقد أنها أعلى شأنا من والدي، لأنها تبدو لي أقرب إلى المعلمات والأساتذة. وكل شيء فيها، سُلطتها، رغباتها وطموحها، كان ينحو نحو المدرسة. نشأ بيننا تواطؤ حول حب القراءة والأشعار التي كنت ألقيها عليها، الحلوى التي كنا نتناولها في قاعة شاي بمدينة روان، والتي أبعد منها. بينما كان هو يصحبني إلى المعرض، والسِّيرك، ولمشاهدة أفلام فيرناندل[٢]. علَّمني ركوب الدراجة وأسماء الخضار المزروعة في الحديقة. كنت أستمتع معه، بينهما معها كانت تجري «محادثات» بيننا. ومقارنة بوالدي كانت هي الوجه المهيمن، هي القانون.

مازلت أحتفظ لها بصور انقباضها وتشجنها، وهي تسير نحو الخمسين من عمرها. كانت حيويَّة وقوية على الدوام، معطاءة، شعرها أشقر أو أحمر، لكن وجهها يظلُّ متضايقا في غالب الأحيان عندما لم تعد مضطرَّة للابتسام في وجوه الزبائن. كانت تنزع إلى استغلال حادثة ما أو فكرة تافهة، لتفرغ شحنة غضبها ضد ظروف عيشهما (المحل التجاري الصغير في الحي يهدده ظهور متاجر جديدة من وسط المدينة الذي أعيد بناؤه) وتغضب من أشقائها وشقيقاتها. بعد وفاة جدَّتي، لزمت الحداد طويلا

---

(١) الكاتب الفرنسي ألفونس دوديه.

(٢) ممثل كوميدي فرنسي.

وبدأت تعتاد الذهاب لحضور القدَّاس كل أسبوع في ساعة مبكِّرة من النَّهار. ثمة شيء ما ذو طابع «وهمي» انطفئ بداخلها.

في سنة ١٩٥٢، في صيف سنتها السادسة والأربعين، وصلنا عبر الحافلة إلى إتريطا[١] لقضاء اليوم هناك. تسلَّقت الجرف بين العشب، بفستانها المصنوع من قماش أزرق موشَّى بورود كبيرة، لبسته خلف الصُّخور عوضا عن بذلة الحداد التي ارتدتها قبل الذهاب اتِّقاء نظرات سكان الحي. وصلت إلى القمة بعدي، وهي تلهث ووجهها يلمع من العرق تحت المسحوق. وكانت دورتها الشهرية قد غابت عنها منذ شهرين.

في سن المراهقة، انفصلتُ عنها ولم يطبع علاقتنا غير الصِّراع.

وهي شابَّة، لم تكن فكرة حرية البنات مطروحة في حدِّ ذاتها، إلا بعبارات تنم عن الضياع. لا أحد يثير موضوع الجنس إلا من منطلق الوقاحة الممنوعة على «الآذان الشابة» أو حكم المجتمع عن السلوك الجيد أو السيء. لم تحدثني في شيء حوله، ولم أجرؤ أنا على سؤالها عن أي شيء مهما كان، لأن الفضول كان يعتبر بداية الرَّذيلة. تجلى قلقي، ما أن حلت تلك اللحظة، في أن أعترف لها أنني حائض للمرَّة الأولى. احمر وجهها وهي تناولني خرقة، دون أن تبين لي طريقة وضعها.

---

(١) مدينة فرنسيَّة تقع في النورماندي.

لم تحبَّ أن تراني أكبر. كانت تشعر بالاشمئزاز من جسدي عندما تراني عارية. بلا شك، كان امتلاكي نهدين وردفين يعني خطرا، هو خطر الرَّكض خلف الفتيان وفقدان الاهتمام بالدراسة. كانت تحاول أن تحتفظ بي طفلة، وهي تقول أنني أبلغ من العمر ثلاثة عشر سنة بينما يفصلني أسبوع واحد عن سنتي الرابعة عشر، أو وهي تلبسني تنانير مغضَّنة وجوارب قصيرة وأحذية بلا كعوب. وإلى حدود سنتي الثامنة عشرة، دارت كل شجاراتنا حول منعي من الخروج واختيار الملابس (رغبتها المتواصلة مثلا في أن أمتلك مشدًّا ظاهريا قائلة: «ستكونين أنيقة»). يتملَّكها غضب مختلف متعلِّقٌ في الظاهر بمسألة: «لن تخرجي بهذا الشكل في جميع الأحوال» (بهذا الفستان أو بهذه التسريحة، الخ) رغم أنها تبدو لي عادية. وكنا نحن الاثنتان نعرف أن كل واحدة منا متشبِّثة بفكرتها: هي حول رغبتي في أن يعجب بي الذكور، وأنا حول هاجسها في أن «يحصل لي مكروه»؛ أي أن أمارس الجنس مع أي كان وأحمل منه.

في بعض الأحيان، كان يهيَّأ لي أن موتها لن يؤثِّر فيّ.

عندما أنكب على الكتابة، أرى الأم «الطيبة» تارة، والأم السيئة تارة ثانية. ولأفلت من قبضة هذا التأرجح النابع من أقصى الطفولة، أحاول أن أصف وأشرح، كأن الأمر يتعلق بأم أخرى وابنة أخرى لن تكون أنا. هكذا، أكتب بالطريقة الأكثر حيادا، لكن بعض العبارات مثل «لو حصل لك مكروه ما» لم تحقق

الحياد التام بالنسبة إلي، كما هو شأن عبارات مجردة أخرى (مثل رفض الجسد والجنس). عندما أتذكر هذه العبارات، يعتريني الشعور بالإحباط ذاته الذي عرفته وأنا في سنِّ السادسة عشر. وسرعان ما أخلط بين المرأة التي طبعت حياتي أكثر من غيرها وأولئك الأمهات الإفريقيَّات اللواتي تشدُّ الواحدة منهن ذراعي ابنتها الصغيرة خلف ظهرها بينما المرأة المسنَّة منهمكة في قطع بَظرها.

لم أعد أعتبرها مثلي الأعلى. صرتُ حساسة تجاه الصورة الأنثوية التي تعترضني في مجلة صدى الموضة، تلك التي تبدو قريبة من صور أمهات رفيقاتي البورجوازيَّات الصغيرات في المدرسة الداخلية: النحيفات والكتومات، اللواتي يُجدن الطبخ وينادين بناتهن «عزيزتي». كنت أجد والدتي فظيعة. كنت أشيح بنظري عندما أراها تفتح قارورة ما واضعة إياها بين ساقيها. كنت أشعر بالخجل من طريقتها الفظّة في الكلام والتصرُّف، وأشعر بخجل أكبر وأعمق عندما أدرك كمْ كنت أشبهها. وأظلُّ ألومها على أن تصبح ما أرغب أنا في التخلي عنه لحظة هجرتي نحو وسط مختلف. وأكتشف أن هاوية سحيقة تفصل بين الرغبة في التثقف وواقع المثقف. كانت أمي في حاجة لمنجد لتقول من كان فان غوغ، ولا تعرف شيئا عن الكُتَّاب الكبار إلاَّ أسماءهم. كما أنها تجهل كيف تسير دراستي. لقد أعجبت بها كثيرا إلى درجة أنني لا ألومها على ذلك أكثر من لومي لوالدي على عجزه عن مرافقتي ولتركه لي دون نجدة في عالم المدرسة والصديقات اللواتي يملكن مكتبة في

منازلهن. لم يكن والدي يملك شيئا يهديني إياه غير قلقه وريبته، مشاعر تجلَّت في أسئلة كهذه: «مع من كنت؟ هل تعملين بجد على الأقل؟»

كانت إحدانا تتحدث إلى الأخرى بنبرة لا تخلو من نبرة المهاترة في كل المناسبات. أقابل محاولاتها في الحفاظ على تواطؤنا القديم بالصمت (بإمكاننا أن نخبر أمهاتنا بكل شيء). لكن صار هذا الأمر مستحيلا منذ الآن: إذ حدِّثها عن الرَّغبات التي لا تتصل بالدراسة (السفر والرياضة والحفلات) أو ناقشت مواضيع سياسية (كانت وقتها حرب الجزائر قائمة)، كانت ترهف السمع إليَّ بمتعة، في البداية، سعيدة بالتعامل معها ككاتمة لأسراري، ثم تخاطبني فجأة بعنف: «كفِّي على أن تتحمَّسي لهذه المواضيع.. واعتني بدراستك أولا.»

أخذت أحتقر الأعراف الاجتماعية والممارسات الدينية والمال. كنت أنقل قصائد رامبو وبريفير وألصق صور جيمس دين على أغلفة دفاتري، وأستمع لأغنية *السمعة السيئة*(١) لبراسنس، وأشعر بالسأم وأنا أعيش تمرُّد المراهقة على الطريقة الرومانسية، كما لو أن والدَاي كانا بورجوازيَّان. وأتماهى مع فنانين غامضين. لم يكن للتمرد، في نظر والدتي، إلاَّ معنى واحدا فقط هو رفض الفقر، وشكلا واحدا هو العمل وكسب المال لتكون أفضل حالا من الآخرين. ومن هنا يتأتى هذا اللوم الموجع الذي لم أعد أفهمه

---

(١) أغنية للمغني الفرنسي جورج براسانس.

أكثر من كونها لا تفهم موقفي. «لو أنهم أقحموك في مصنع وأنت في سن الثانية عشرة، لما عشت سعادتك». بل غالبا ما تكرر بثَّ غضبها تجاهي: «الأمر جيد في المدرسة الداخلية، ولا يستحق ذلك أن يكون أغلى من داخليات أخرى».

في بعض اللحظات، كانت ترى في ابنتها التي تقف قبالتها عدوَّة من الطراز الأول.

لم أكن أحلم سوى بالرحيل. ووافقت على التحاقي بمعهد رُوان، ولاحقا إلى لندن. وهي مستعدة أن تبذل كل التَّضحيات حتى أحظى بحياة أفضل من حياتها، بل أن تبذل أقسى التضحيات حتى أفترق عنها. بعيدا عن نظرها، نزلت إلى أعماق ما منعتني عنه، ثم شعرُت بنهم للأكل سرعان ما تحوَّل إلى فقدان للشهية تواصل لأسابيع حدَّ الشعور بالدُّوار، قبل أن أتعلَّم كيف أصبح حُرَّة. ثم نسيت صراعاتنا. وأنا طالبة بكلِّية الآداب احتفظت بصورة نقيَّة لها، صورة خالية من الصراخ والعنف. كنت واثقة من حبها لي، ومن هذا الظلم الذي جعلها تقدّم أكلات البطاطس والحليب من الصباح حتى المساء، حيت أتمكن من الجلوس في مدرج الجامعة وأستمع إلى حديث عن أفلاطون.

كنت سعيدة بلقائها، لكنني لم أكن مشتاقة إليها. فأنا أعود إليها عندما يعتصر قلبي الحزن خاصَّة بسبب القصص العاطفية التي لم أكن أقدر على البوح لها بها. مع أنها تسرُّ إلي الآن في

همس بعلاقات إحداهن أو إجهاض أخرى حملها. بطبيعة الحال كنت قد بلغت السن الذي يسمح لي بسماع هذه الأشياء رغم أنها أشياء لا تعنيني.

عندما أصل إلى المنزل أجدها واقفة خلف المنضدة. عندما تلتف الزبونات إليّ، يحمرُّ وجهها خجلا وتعلو شفتيها ابتسامة. لا تقبِّلني إلا ونحن في المطبخ، فور مغادرة آخر زبونة. ثم تطرح عليَّ أسئلة حول الطَّريق والدراسة وتقول لي: «أتركي لي أغراضك لأغسلها» أو «احتفظت لك بكلِّ الصُّحف منذ ذهابك». الشعور الذي يجمعنا هو الرقَّة، بل يكاد يكون الخجل الذي يظهره أولئك الذين لم يعودوا يعيشون مع بعضهم عضا. طوال سنوات، لم تجمعنا إلا لحظات العودة.

أجرى والدي عملية جراحية على المعدة. صار على إثرها يشعر بالإرهاق بسرعة، ولم تعد قواه تسعفه على رفع الخزانات. فتكفَّلت هي بذلك وأصبحت تقوم بعمل شخصين معا دون أن تتذمَّر. بل إنها كانت تفعل ذلك بكل سرور. منذ غيابي عن المنزل قلَّت الشجارات بينهما. وبدأت تقترب منه وتناديه في الغالب بـ«أبي» بنبرة حنونة، كما أنها صارت متصالحة مع عاداتها القديمة كالتدخين: «يجب أن نستمتع من وقت لآخر». في آحاد فصل الصيف، كانا يتجولان بالسيارة في الريف أو زيارة بعض الأقارب. وفي الشتاء، تحضر صلوات الغروب، ثم تحيّي بعض الأشخاص المسنّين. تقفل عائدة عبر وسط المدينة، ثم تقف

مطولا أمام واجهة مركز تسوُّق حيث يتجمع الشبان بعد الخروج من السينما.

مازال الزبائن يردِّدون أنها كانت امرأة جميلة. شعرها مصبوغ على الدَّوام، وتلبس كعبا عاليا ماعدا الزَّغب الذي يعلو ذقنها والذي تحرقه خفية. تلبس نظارات ذات بؤر مضاعفة. (والتسلية هي سر اطمئنان والدي، وهو يراها تسترجع، عبر هذه المعالم، السنوات التي تصغره بها). امتنعت عن ارتداء فساتين خفيفة بألوان صارخة، وإنما فقط بدلات رمادية أو سوداء اللون حتى في فصل الصيف. ولتشعر بالراحة أكثر، تعمد إلى عدم إدخال قميصها داخل تنُّورتها.

وحتى سن العشرين، خُيِّل إليَّ أنني أنا من كنت أدفعها نحو الشَّيخوخة.

لا أحد يعلم أنني أكتب عنها. لكنني لا أكتب عنها، بل أشعر بالأحرى أنني أعيش معها في زمن وأماكن حيث ظلت حيّة. في بعض الأحيان، يحدث أن أعثر، وأنا في المنزل، على أشياء تخصُّها. ففي اليوم السابق، عثرت على كشتبان كانت تضعه في هذه إصبعها الذي قطعته آلة في مصنع الحبال. سرعان ما غمرتني ذكرى موتها ووجدتُني في الزمن الحقيقي الذي لن تعود إليه أبدا. في هذه الظروف، لا يكتسي «نشر» كتاب ما أي معنى، وحده موت والدتي المحتوم يظلُّ ذا معنى. وكم رغبت في شتم أولئك الذين يسألونني وهم يبتسمون: «متى يصدر كتابك المقبل؟»

حتى وأنا أعيش بعيدا عنها، وطالما لم أتزوج، فأنا أنتمي إليها. كان ترد على العائلة والزَّبائن الذين يسألونها عني: «مازال أمامها وقت كافٍ للزواج. إنها في أوج شبابها». ثم سرعان ما تصيح: «لا أريدها أن أبقيها إلى جانبي، حيث تقتضي سُنَّة الحياة أن يكون لها زوج وأطفال». ارتعشت واحمرَّ وجهها عندما أخبرتها، ذات صيف، عن اعتزامي الزواج من طالبٍ في العلوم السياسية في بوردو. قالت وهي تبحث عن موانع لهذا الزَّواج وبعد أن عاودها الحذر القروي الذي كانت تعتبره مع ذلك متخلِّفا: «إنه ليس شابا من نواحينا». ثم غمرها شعور بالهدوء بل بالسعادة. ففي مدينة صغيرة يعتبر فيها الزواج مقياسا أساسيا لتقييم الناس لا سبيل للقول: «لقد تزوَّجت عاملا». هكذا، وحّدنا شكل جديد من أشكال التواطؤ حول الملاعق وأكوام الطَّناجر التي ينبغي شراؤها، حول استعدادات «اليوم الموعود»، ولاحقا حول الأطفال. بعد ذلك، لم يكون هناك أي تواطؤ بيننا.

كان لزوجي ولي نفس المستوى الدراسي، حيث كنا نتناقش حول سارتر والحرية ونذهب لمشاهدة فيلم *المغامرة* لأنطونيوني. نتشارك في نفس الأفكار السياسية اليساريَّة. لكننا لم نكن ننتمي لنفَس البيئة. فهو سليل عالم ليس ثريًّا فعلا، لكن أبناءه يلتحقون بالجامعة ويعبِّرون عن كلِّ شيء بأسلوب جيد ويلعبون الورق. والدة زوجي، التي كانت في سنِّ والدتي، ظلت تحافظ على جسدها

النحيف، ووجهها الناعم ويديها جيدي المظهر. كان باستطاعتها أن تتعرَّف إلى أي قطعة موسيقية تُعزف على البيانو وتحسن «الإنصات» إلى أنغامه. (فهي تنتمي إلى ذلك النوع من النساء اللواتي نشاهدهن في مسرح الشارع على التلفاز، في الخمسين من العمر بعقد دائري من اللؤلؤ على السترة الحريرية و«ساذجات على نحو لذيذ»).

وأمام هذا العالم كانت والدتي موزعة بين الإعجاب الذي كانت التربية والأناقة والثقافة توحي لها به، وشعورها بالفخر وهي ترى ابنتها وقد أصبحت جزءا من هذا العالم والخوف من أن تزدريها مظاهر آداب الكياسة. تجلَّى حجم شعورها بالسُّخط ذاك الذي لم تكن تفصلني عنه (والذي يحتاج محوه ربما إلى جيل بأكمله) في هذه الجملة التي قالتها لي ليلة زفافي: «احرصي على الحفاظ على زواجك. يجب ألا يطردك زوجك». ثم قالت، وهي تتحدث عن حماتي قبل عدة سنوات: «واضح جدا أنها امرأة لم تنشأ مثلنا».

تمنَّت أمي أن يحبوها من أجل ما تهبه، خوفا من أن لا يحبَّها الناس لذاتها. أرادت أن تعيننا ماديا خلال سنتنا الدراسية الأخيرة. لكنها صارت لاحقا تقلق على الدوام بشأن الأشياء التي سيمتعنا امتلاكها. فيما كان عائلة زوجي تتمتع بحسِّ الفكاهة والأصالة، حيث لم تكن نفسها مجبرة على فعل أيِّ شيء.

انتقلنا إلى العيش في بوردو، ثم إلى آنيسي حيث حصل زوجي على وظيفة إطار إداري. أصبحت بدوري امرأة لا وقت

لها، موزعة بين الدُّروس التي أقدِّمها في مدرسة جبلِية تبعد أربعين كيلومترا، والاهتمام بطفل وشؤون المطبخ. لم أعد أفكر في والدتي مطلقا. باتت بعيدة عني أكثر مما كانت قبل زواجي. كنت أجيب باختصار على الرَّسائل التي ترسلها إلي كل أسبوعين، وتستهلها بـ«ابناي العزيزان جدا»، وتتحسَّر فيها دائما على عجزها عن مساعدتنا بسبب بعدها عنا. كنت ألتقي بها مرَّة واحدة في السَّنة، لبضعة أيام في فصل الصيف. كنت أصف لها مدينة آنيسي والشَّقة التي أسكنها ومحطَّات التزلج. أما والدي، فقد كان حديثه مقتصرا على هذه الجملة: «أنت بخير، هذا هو المهم». عندما نصير وحدنا، تعتمل في داخلها رغبة ملحَّة في أن أسرَّ لها بشيء ما حول زوجي وعلاقتي به، وعندما يخذلها صمتي لعدم قدرتي على الإجابة عن هذا السؤال الذي لاشك أنه يقضُّ مضجعها أكثر من أي شيء آخر، كانت تقول: «هل يجعلك سعيدة على الأقل؟»

سنة ١٩٦٧، توفي والدي إثر تعرضه لتخثر قضى عليه خلال أربعة أيام. لا أملك القدرة على وصف تلك اللحظات، لأنني ذكرت ذلك في كتاب آخر؛ أي أنه لا يمكن أن توجد حكاية أخرى ممكنة بكلمات أخرى، وترتيب آخر للجمل. أن أقول فقِط أن والدتي تتراءى لي، وهي تغسل وجه أبي بعد موته، وهي تلبسه أكمام قميص نظيف وبدلته الخاصة بيوم الأحد. وفي الوقت ذاته، تهدهده بكلمات لطيفة، كأنه طفل صغير تعوّمه وتنوّمه. اعتقدت وأنا أرى حركاتها البسيطة والدقيقة، أنها كانت

على يقين بأنه سيموت قبلها. في المساء الأول بعد موته، واصلت النوم على السرير بجانبه. وفي انتظار أن تأتي سيارة دفن الموتى لحمله، كانت تصعد لرؤيته بعد قضاء حاجة لزبونين، تماما كما كانت تفعل في أيام مرضه الأربع.

بدت بعد مراسم الدَّفن منهكة وحزينة، وهي تعترف لي: «أن تفقدي شريك حياتك أمر قاس». لكنها واصلت الاهتمام بتجارتها كما في السابق. (قرأت مؤخرا في صحيفة أن «اليأس ترف». وهذا الكتاب الذي توفَّر لي الوقت والمال لكتابته منذ أن فقدت والدتي هو أيضا ترف دون شك).

كثرت زياراتها للعائلة والثَّرثرة لساعات طويلة مع شابات في المحل. وكانت تغلق الدكان الذي زاد عدد روَّاده من الشَّباب في ساعة متأخرة. أصبحت أكولة، حيث استعادت قوَّتها من جديد، وغدت فصيحة اللِّسان مع نزعة للانغماس في الحياة، مثل فتاة مزهوَّة بنفسها، وهي تخبرني أن أرملن أظهرا اهتماما بها. في شهر ماي من سنة ١٩٦٨: قالت لي عبر الهاتف: «الواقع يتململ هنا أيضا. أجل يتململ!». بعد ذلك، عندما حلَّ الصيف الموالي، حرصت على أن تحافظ على ترتيب الأمور (استاءت لاحقا من اجتياح اليساريين دكان 'فوشون' في باريس، الذي كانت تتخيله شبيها بدكانها).

وكانت في رسائلها تؤكد أنها لا تجد الوقت للملل. لكنها لا تحمل في أعماقها إلا رجاء واحدا وهو أن تعيش معي. قالت

لي، في أحد الأيام بنبرة خجولة: «لو انتقلت إلى العيش معك لاستطعت الاهتمام بمنزلك».

وأنا في آنيسي، ظللت أفكر بها وإحساس بالذَّنب يعتمل في صدري. كنا أنا وزوجي نسكن «منزلا بورجوازيا كبيرا» ورزقنا بمولود ثان. فيما ظلَّت هي على حالها لا تستفيد من أي شيء. كنت أتخيلها وهي بصحبة أحفادها ينعمون بحياة مريحة، وأتصورها أنها تسرّ ذلك، بما أنها كان تريد لي ذلك! في ١٩٧٠، باعت منزلها بعد أن واجهت صعوبة في إيجاد مشتر له كأنه منزل استثنائي، وانتقلت إلى العيش معي.

كان يوما لطيفا من أيام شهر يناير. وصلت بعد الظهيرة، مع شاحنة الرحيل، بينما كنت في الإعدادية. وفور عودتي لمحتها في الحديقة وهي تضمُّ حفيدَها ذي السَّنة الواحدة بين ذراعيها، وتراقب في الوقت نفسه نقل الأثاث وصناديق المعلَّبات التي بقيت محتفظة بها. كان شعرها شديد البياض. كانت تضحك وتغمرها الحيوية. صاحت عندما رأتني من بعيد: «لم تتأخري»! فجأة، قلت في نفسي، وأنا متعبة: «الآن سأعيش قبالتها مدى الحياة».

في البداية، لم تغمرها سعادة كبيرة كما كان متوقعا. انتهت حياتها كتاجرة بين عشيَّة وضحاها. وانتهى أيضا الخوف من الانهيار والتعب، بل والذهاب والإياب وحوارات الزبائن

وافتخارها بكسب «مالها». لم تعد الآن سوى «جدَّة» لا أحد يعرفها في المدينة، ولا تجد من تتحدث إليه غيرنا. فجأة، غدا الكون ضيقا وكئيبا وفقدت الشعور بأي شيء.

وهذا أيضا: أن تعيش مع أبنائها معناه أن تقاسمهم حياة تفتخر بها. (كانت تقول للعائلة متحدِّثة عنا: «إن وضعهم جيدا!»). كما كان يعني أن لا تجفِّف الخرق على مدفأة المدخل، و«العناية بالأشياء» (الأسطوانات، مزهريَّات الكريستال)، والاهتمام بالنظافة (عدم مخط الأطفال بمنديلها الخاص). اكتشفت أننا لم نكن نشاركها الاهتمام بأشياء تبدو لها مهمَّة حقا: الأخبار، الجرائم، الحوادث، العلاقات الجيِّدة مع الجيران، الخوف المتواصل من «إزعاج» النَّاس (حتى الضحكات، التي كانت تصدمها، من هذه الاهتمامات). كان كل هذا يعني أن تعيش داخل عالم يستقبلها من جانب ويطردها من الآخر. ذات يوم، قالت بغضب: «أنا لا أحسن التصرف!»

هكذا، لم تكن تجيب على الهاتف عندما يرن بالقرب منها. وتطرق الباب بقوَّة قبل الدخول إلى الصالون حيث يجلس صهرها مشاهدا مباراة على التلفاز. لا تفتأ تطالب بأن تكلَّف بعمل: «إذا لم أكلَّف بعمل، فلا سبيل أمامي إلا الرَّحيل»، ثم تقول وهي تحاول الضحك: «يجب أن أدفع ثمن إقامتي». نشأت بيننا شجارات بسبب تصرُّفها ذاك. كنت ألومها على تعمُّدها إهانة نفسها. استغرقتُ وقتا طويلا قبل أن أدرك أن والدتي كانت تشعر بعدم الارتياح في منزلي، نفس الشعور الذي غمرني وأنا مراهقة

داخل «الأوساط التي هي أفضل منا» (كأن قدر الأقل شأنا أن يعانوا الفوارق التي يعتبرها الآخرون بلا أهمية). عندما كانت تتظاهر بأنها موظفة، تحوّل لاإراديا الهيمنة الثقافية والحقيقية لأبنائها الذين يقرؤون صحيفة *لوموند* أو يستمعون إلى باخ إلى هيمنة اقتصادية خيالية، هيمنة رب العمل على العامل، وهو أسلوبها في التمرد.

تأقلمت مع الوضع بعد أن وجدت طاقتها وحماسها في العناية بأحفادها وبجزء من صيانة المنزل. كانت تسعى إلى أن تحرِّرني من كل الأعباء المادِّية، وتتحسر على سماحها لي بالطبخ وشراء الأغراض وتشغيل آلة الغسيل التي تخشى استعمالها، رغبة منها في عدم مشاركتها المجال الذي عُرفت به وتدرك جيدا أنها نافعة فيه. ظلت والدتي، كما كانت سابقا، ترفض أن نقدِّم لها يد المساعدة، وتستنكر أن تراني أعمل بيدي: «اتركي هذا، لديك انشغال أهم» (أي حفظ دروسي عندما كنت في العاشرة من عمري والآن إعداد دروسي وسلوكي كمثقفة).

ومن جديد، عدنا نتخاطب بتلك النَّبرة الخاصَّة، التي يعتمل فيها الغيظ والشكوى الأبديان اللذان يجعلان الجميع يعتقدون دوما، وهم على خطأ، أننا نتخاصم خصاما أستدلُّ عليه بأيِّ لغة كانت بين أمٍّ وابنتها.

كانت تعشق أحفادها، وتنذر حياتها لهم دون جدود. وفي أوقات ما بعد الظهيرة، تستكشف المدينة مع أصغرهم في عربته.

كانت تدخل إلى الكنائس وتقضي ساعات في ملاهي الألعاب، وتتسكَّع في الأحياء القديمة، ولا تعود إلا عند حلول اللَّيل. أما في الصَّيف، فكانت تصعد رفقة الصغيرَين إلى تلَّة آنيسي- لي- فييو وتصحبهما إلى ضفاف البحيرة، تلبي رغباتهما في شراء الحلوى والمثلجات وجولات بلعبة الخيل الخشبية. عندما تجلس على المقاعد، تتعرَّف إلى أناس كانت تلتقي بهم بعد ذلك بانتظام، وتثرثر مع خبازة الحي، وتعيد خلق عالمها الخاص.

كانت تقرأ صحيفة *لوموند* و*المراقب الجديد* وتزور صديقة «لشرب الشاي» عندها. تقول ضاحكة: («أنا لا أحبُّ هذا لكنني لن أرفضه»). وكانت تهتم بالآثار القديمة: («يبدو أنها قيِّمة»). لا تنطق بأي كلمة بذيئة، وتجتهد في التَّعامل «برقَّة» مع الأشياء. باختصار، كانت تراقب عنفها وتضعفه. بل إنها تفتخر بكونها تملَّكت، في وقت متأخر، هذا العلم المترسخ عند النساء البورجوازيات من جيلها منذ سن الشباب؛ أي الاعتناء المثالي بالأعماق.

لم تعد تلبس الآن إلا ألوانا فاتحة، حيث تخلَّت عن الأسود نهائيا.

في صورة لها تعود لشهر سبتمبر من سنة ١٩٧١، بدت مشرقة بشعرها الشديد البياض، ونحيفة أكثر من السابق. كانت ترتدي قميصا من تصميم روديه طُبعت عليه زخرفات عربية. وتحتضن بيديها أكتاف حفيديها الماثلَين أمامها. إنها نفس اليدان الضَّخمتان والمضمومتان في صورة زفافها.

في منتصف السبعينات، تبعتنا إلى المنطقة الباريسية، إلى

مدينة جديدة في طور الإنشاء حصل فيها زوجي على منصب أكثر أهمية من سابقه. صرنا نسكن في جناح تابع لمجمَّع سكنيٍّ جديد وسط سهل. كانت المحلاَّت التجارية والمدارس تقع على بعد كيلومترين. لم نكن نلتقي بسكان الحي إلاّ في المساء. وفي آخر الأسبوع، كانوا يغسلون السيارة ويركبون رفوفا داخل المرآب. كان مكانا واسعا وخاليا نشعر فيه بأننا نطوف في الهواء، ونفتقر إلى الأحاسيس والأفكار.

لم تتعوَّد على العيش هناك. كانت تخرج، بعد الظهيرة، للتَّنزُّه في شارع الورود والنرجس والترنجان الخالي، وتخط رسائل عديدة إلى صديقاتها بآنيسي وإلى العائلة. في بعض الأحيان، كانت نزهتها تمتد حتى مركز ليكلارك، من الجهة الأخرى للطريق السيارة، عبر طرقات مشقوقة، حيث كانت السيارات العابرة تلطِّخها. ثم تعود ووجهها مكفهِر. وكانت أبسط حاجيَّاتها متوقِّفة علي وعلى سيارتي، يثقل عليها مجرَّد الذهاب لشراء زوج جوارب أو حضور القدَّاس أو إلى الحلاق. باتت حادة الطبع، إذ تحتجُّ قائلة: «لا يمكن أن نقرأ على الدوام!» كان تركيب غسالة صُحون، في حال انتزعها من شغل ما، يشعرها بالإهانة: «ما الذي سأفعله الآن»؟ لم تكن تتحدث، داخِل المجمَّع السكني، إلا مع امرأة واحدة من جزر الأنتيل تعمل موظفة في مكتب.

بعد مرور ستَّة أشهر، قرَّرت العودة مرة أخرى إلى إيفيتو. انتقلت للسكن في شقة أرضيَّة صغيرة مخصَّصة للكبار في السن

وقريبة من وسط المدينة. غمرها شعور بالسَّعادة لأنَّها تحرَّرت من جديد والتقت بشقيقتها الصغرى- الأخريات توفين- وبزبونات قديمات، وبنات أخت متزوجات كنَّ يدعونها للحفلات وقرابين القداس. كانت تستعير كتبا من المكتبة البلدية وتسافر إلى لوردس في أكتوبر خلال موسم الحج الأبرشي. غير أنها صارت، شيئا فشيئا، مضطرَّة لتكرار كل شيء في حياة بلا وظيفة، ينتابها القلق والانزعاج من كونها لم تعد تحظى إلا بجيرة العجائز (وهذا ما يفسِّر رفضها العنيف للمشاركة في أعمال «نادي الجيل الثالث»)، وبكل تأكيد شعورها بالاستياء لأن سكان المدينة التي عاشت فيها مدة خمسين سنة، أولئك الذين تمنَّت أن تجعلهم شهودا على نجاح ابنتها وصهرها، لن يتحققوا من ذلك بأم أعينهم.

ستكون هذه الشقَّة الصغيرة آخر سكن لها. وهي عبارة عن حجرة شبه معتمة، مطبخها مركون في زاوية تطل على حديقة صغيرة، ذات تجويف مُعدٌّ للسَّرير ومنضدة جانبية، وحمام وهاتف للتَّواصل مع حارسة المبنى. كانت الشقة فضاء يقلِّصُ كل الحركات، أو بالأحرى لم تكن تجد شيئا تفعله غير البقاء جالسة ومشاهدة التِّلفاز، في انتظار البدء في تناول العشاء. كانت تردد، كلما زرتها، وهي تتلفت حولها: «سأصبح قاسية إذا شكوت». بدت لي أكثر شبابا من أن تظلَّ هنا.

كنا نتناول الغذاء، متقابلتين على المائدة. في البداية، تحدثنا في مواضيع عدة: الصحة، نتائج الأطفال المدرسية،

المتاجر الجديدة، العطل. لكننا سرعان ما كنا نتوقف عن الكلام ويسود الصمت. كانت تحاول كعادتها استئناف الحوار، كأن تقول: «كيف أقول ذلك...» ذات مرَّة، قلت في قرارة نفسي: «هذه الشقة هي المكان الوحيد الذي سكنت فيه والدتي من دوني منذ ولادتي.» لحظة مغادرتي، عمدت إلى إخراج وثيقة إدارية راغبة في أن أشرح لها ما جاء فيها. كانت تبحث في كل مكان عن مقالة تتحدَّث عن وصفة تجميل أو تنظيف كانت قد خبَّأتها من أجلي.

كنت أفضِّل أن تأتي هي لزيارتي بدل أن أذهب أنا إليها: كان يبدو لي أن اندماجها في حياتنا لمدة خمس عشرة يوما أهون من أن أقاسمها ثلاث ساعات من حياتها التي تسودها الرَّتابة. كانت تسارع إلينا كلما وجهت لها الدَّعوة. غادرنا المجمَّع السَّكني وأقمنا بالقرية القديمة المحاذية للمدينة الجديدة. أثار هذا المكان إعجابها. كانت غالبا ما تقف على رصيف المحطة مرتدية بذلة نسائية حمراء، حاملة حقيبتها التي ترفض أن أحملها عنها. وما إن تصل حتى تشرع في تقليب تراب أحواض الورود. وفي الصيف، عندما تذهب للإقامة معنا لمدَّة شهر بمدينة نيافر، تسير بمفردها عبر الدروب وتعود محمَّلة بكيلوغرامات من التوت وقد خدشت ساقيها. لم تكن تقول أبدا: «لقد كبرت على...» وتذهب لصيد السمك مع الأولاد أو إلى معرض ترون، أو تنام في وقت متأخر، الخ.

ذات مساء من شهر دجنبر ١٩٧٩، في نحو الساعة السادسة والنصف، صدمتها سيارة من نوع سي إكس على الطريق الوطنية ١٥. كانت السيارة قد تجاوزت الضوء الأحمر الخاص بمسار الراجلين الذي تسير عليه والدتي. (كتبت جريدة محلية مقالة تقول فيها إن سائقة السيارة كان حظها سيئا «لأن الرؤية لم تكن جيدة بسبب غزارة الأمطار» و«أن الضوء الساطع الصَّادر عن السيارات القادمة في الاتجاه المعاكس يمكن أن يضاف إلى الأسباب الأخرى التي جعلت السائقة تعجز عن رؤية المرأة السبعينيَّة). انكسرت ساقها وأصيبت بارتجاج في الدماغ. وفقدت الوعي طيلة أسبوع. لكن جرَّاح المصحة خمَّن أنَّ بنيتها القوية ستتغلب على الإصابة. كانت تتخبَّط محاولة انتزاع المصل ورفع ساقها المجبَّسة. كانت تصيح بشقيقتها الشقراء التي ماتت قبلها بعشرين سنة بضرورة الانتباه لأن سيارة تتَّجه نحوها. حدَّقتُ في كتفيها العاريين، وفي جسدها الذي كنت أراه للمرَّة الأولى مهجورا، غائرا في الألم. خيِّل إلي أنني أقف أمام المرأة الشابة التي ولدتني بصعوبة في ليلة حرب. أدركت في ذهول أنها قد تموت.

تعافت وتحسَّنت مشيتها، ثم سعت إلى ربح القضية التي رفعتها ضد سائقة سيارة 'سي إكس'. خضعت لكل الفحوصات الطبية بوقاحة قاطعة. حدَّثها البعض عن الحظ الذي حالفها في نجاتها من الحادث. كانت فخورة بذلك كأن السيارة المتَّجهة نحوها مثَّلت عائقا تغلَّبت عليه، كما جرت عادتها دوما.

ثمَّ تغيَّرت. أصبحت تهيئ المائدة في وقت مبكر من ذي قبل، بالضبط في الساعة الحادية عشر صباحا والساعة السَّادسة والنصف مساء. لا تقرأ إلا مجلَّة *فرانس ديمونش* والروايات المصوَّرة التي ترسلها إليها امرأة شابة، هي زبونة قديمة (والتي تخبئها في صوانها عندما كنت أذهب لزيارتها). كانت تشغل التلفاز منذ الصباح- في الوقت الذي لا يبث فيه برامج بل الموسيقى فقط وشريط نهاية الإرسال...- تتركه مشتغلا طوال اليوم ونادرا ما تشاهده مساء وتنام أمامه. كانت تغضب بسهولة، تكاد لا تتوقف عن القول: «هذا يثير اشمئزازي» وهي تقصد العوائق الواهية، أو مئزرا يصعب كيُّه أو الخبز الذي ارتفع ثمنه. كانت تتملَّكها أيضا نزعة ذعر من نشرة صندوق التقاعد أو إعلان يعلمها بأنها ربحت جائزة ما، حيث تردُّ قائلة: «لكنني لم أطلب شيئا». عندما تتذكر آنيسي والنُّزهات برفقة الأطفال في الأحياء القديمة، واللَّقالق على ضفاف البحيرة، تستعد للبكاء. كانت تفتقر إلى بعض الكلمات كي تكمل رسائلها التي غدت نادرة وقصيرة. وفي الشقة، بدأت تفوح رائحة غريبة.

كانت تعيش بعض المصادفات الغريبة، كأن تنتظر على الرَّصيف قطارا كان قد غادر المحطَّة. عندما تحين لحظة التسوُّق، كانت تجد كل الدكاكين مغلقة. كانت تفقد مفاتيحها على الدوام. وكانت شركة 'لارودوت' ترسل إليها سلعا لم تطلبها. كما أنها أصبحت عنيفة في سلوكها مع عائلتها في إيفيتو، إذ تتهمهم بالفضول في الاطلاع على أموالها، وترفض

مخالطتهم مجدَّدا. ذات يوم، اتَّصلتُ بها، فأجابتني: «لقد ضقت ذرعا بهذه الفوضى التي باتت تسبِّب لي إزعاجا كبيرا». وكان يبدو أنها أصبحت أكثر صلابة أمام تهديدات مبهمة.

كان شهر يوليوز من سنة ٨٥ حارقا، حتى في النورماندي. لكنَّها لم تكن تشعر بالعطش ولا بالجوع، حيث كانت أن الأدوية تغذيها. . حدث أن فقدت وعيها بسبب أشعة الشمس. نقلت إلى القسم الاستعجالي في المصحَّة. بعد بضعة أيام، وبعد أن تغذت وارتوت، تحسَّنت حالها وطلبت أن نعيدها إلى المنزل، «وإلا سأقفز من النافذة»، قالت. قال الطبيب إنه يستحيل أن تظل بمفردها منذ ذلك الوقت فصاعدا. نصح بنقلها إلى مأوى للعجزة. لكنني رفضت هذا الحل.

في بداية شهر شتنبر، ذهبتُ بالسيارة لآخذها من دار العجزة نهائيا إلى المنزل. كنت وقتها قد انفصلت عن زوجي وأعيش مع ابنَيْ. كنت طوال الطريق أقول في قرارة نفسي: «الآن سأعنى بها» (وكما كنت أقول في السابق: «عندما أكبر سنسافر معا، وسنزور اللوفر»، إلخ). كان الجو جميلا. كانت صافية الذهن، وهي تجلس في الكرسي الأمامي للسيارة. كانت تضع حقيبتها على ركبتيها. تحدثنا كما في السابق عن الأطفال، وعن دراستهم، وعن عملي. بدأت تروي ببهجة حكايات عن شريكاتها في الغرفة. ثم أردفت ملاحظة غريبة عن إحداهن: «العاهرة! كنت أودُّ أن أرد لها صفعتين». كانت تلك آخر صورة سعيدة احتفظت بها لأمي.

تتوقّف حكايتها هنا. الحكاية التي كانت لها فيها مكانة مهمّة في العالم. فقدت عقلها بعد ذلك. كانت تلك الحالة تسمى الزهايمر، اسم أطلقه الأطباء على شكل من أشكال جنون الشيخوخة. منذ بضعة أيام وأنا أكتب بصعوبة تكبر شيئا فشيئا، ربما لأنني لم أكن أريد أن أصل أبدا إلى هذه اللحظة. ومع ذلك، فأنا أعرف أنني لا أقدر على العيش دون أن أوحّد عبر الكتابة بين المرأة التي أصبحت معتوهة بتلك القوية والمشرقة التي كانتها في ما مضى.

باتت تتوه بين مختلف حجرات المنزل، إذ غالبا ما تطلب مني، وهي غاضبة، كيف تذهب إلى غرفتها. بدأت تضيِّع أغراضها (وهذه الجملة التي كانت ترددها آنذاك: «أنا عاجزة عن إيجادها»)، وتثور عندما تجدها في أماكن ترفض أن تصدِّق أنها هي نفسها وضعتها فيها. كانت تطالب بخياطة ثيابها وكيِّها وبتقشير الخضر. لكن سرعان ما يتفاقم غضبها بسبب كلِّ عمل من هذه الأعمال. بدأت تعيش في لهفة دائمة لمشاهدة التلفاز وتناول الغذاء والخروج إلى الحديقة.. توالت رغباتها دون أن تحمل معها أيَّ شعور بالرضا.

في فترة ما بعد الظهر، كانت تجلس، كما جرت العادة، إلى مائدة داخل قاعة الجلوس، حاملة دفتر العناوين ودفتر الرسائل. وبعد ساعة، تمزق الرسائل التي بدأت كتابتها دون أن تتمكن من إتمامها. جاءت في إحداها كتبتها في شهر نونبر: «عزيزتي

بوليت، لم أخرج من عتمة ليلي».

ثم نسيت ترتيب الأشياء وطريقة عملها. لم تعد تعرف كيفية ترتيب الكؤوس والصُّحون على المائدة وإطفاء النور في غرفة ما. (إذ كانت تصعد على كرسي محاولة فصل اللَّمبة).

كانت ترتدي تنانير قديمة وجوارب مرقَّعة ترفض التخلُّص منها. وتقول لي: «إنك ثرية إذن لأنك تتخلَّصين من كلِّ شيء». لم تعد تنتابها مشاعر أخرى غير الغضب والريبة. صارت تحسُّ أن كل الكلمات تحمل بين طيَّاتها تهديدا ضدَّها. تعذبها ضرورات قاهرة باستمرار، مثل شراء الدهان لتثبيت شعرها، ومعرفة اليوم الذي يعود فيه الطبيب لزيارتها، ومبلغ المال بحسابها المسجل في دفتر الادِّخار. لكن تنتابها، أحيانا، نوبات ابتهاج مفتعل، وضحكات خفيفة من غير قصد، لتبيِّن لنا أنها ليست مريضة.

لم تعد تفهم ما تقرؤه. تتنقَّلُ من حجرة إلى أخرى، تبحث عن شيء ما لا توقف. كانت تفرغ خزانتها وتنشر فساتينها على السَّرير، تنشر ذكرياتها الصغيرة، ثمَّ تعيد ترتيبها على رفوف أخرى، وتكرّر ذلك في اليوم التالي، كأنها أخفقت في إيجاد الوضعية الملائمة. بعد ظهيرة ذات سبت، خلال شهر يناير، كوَّمت نصف ملابسها في أكياس بلاستيكيَّة خاطت أطرافها لتغلقها. عندما لا تجد ما ترتِّبه، تجلس على كرسي في قاعة الجلوس، مكتوفة اليدين، وهي تحدق أمامها. لم يعد ثمة شيء يسعدها.

نسيت الأسماء. كانت تناديني «سيدتي» بنبرة اجتماعية مهذَّبة. لم تعد وجوه أحفادها توحي لها بأيِّ شيء. عندما تجالسهم على المائدة، تسألهم هل يدفعون لهم جيدا هنا. كانت تتخيل نفسها في ضيعة وهم موظَّفون فيها مثلها. لكنها «تشعر» بالخجل عندما تلطِّخ بالبول ثيابها الداخلية، التي تخبئها تحت وسادتها، وصوتُها يهمس ذات صباح في رقَّة: «انفلت مني البول». كانت تحاول أن تتشبَّث بالعالم، وترغب في أن تخيط الثياب بكل قوتها، حيث تجمع الأوشحة والمناديل، الواحد فوق الآخر على نحو مائل. ظلت متعلقة ببعض الأشياء، كمحفظة التَّجميل التي تحملها معها، حيث تفقد صوابها وتكاد تبكي عندما لا تجدها.

طوال هذه الفترة، اصطدمتُ بسيارتين. كنت مخطئة في الحالتين معا. بدأت أعاني صعوبات في البلع وألم في المعدة. بِتُّ أصيح لأتفه الأسباب، وصارت تراودني رغبة في البكاء. خلافا لذلك، كنت أحيانا أضحك بقوة مع ولدي، حيث نتظاهر بالنظر إلى نسيان والدتي كأنه نوبات هزليَّة إرادية من طرفها. كنت أتحدث عنها لأشخاص لا يعرفونها، فينظرون إلي في صمت. خلتني مجنونة أنا أيضا. ذات يوم، قدت السيارة على غير هدى على طرقات ريفيَّة لساعات، ولم أعد إلى المنزل إلا ليلا. انخرطت في علاقة مع رجل يثير اشمئزازي.

كنت أرفض أن تعود أمي طفلة صغيرة، إذ لم يكن لها «الحق» في ذلك.

بدأت تتكلم مع مخاطبين لا يراهم سواها. كنت أصحح أوراق الامتحانات، عندما حدث ذلك للمرَّة الأولى. سددت أذني. قلت في نفسي: «إنها النهاية». بعد ذلك، كتبت على قطعة ورق: «أمي تتحدث إلى نفسها». (أنا الآن بصدد إعادة كتابة هذه الكلمات، لكنها لم تعد كلمات تخصُّني وحدي كما في السابق، كلمات تعينني على تحمُّل ذلك المشهد القاسي، بل هي الآن كلمات تساعدني على فهمه).

فقدَت الرغبة في الاستيقاظ صباحا. لم تعد تأكل إلا الألبان والحلويات. تتقيأ ما سوى ذلك. في أواخر شهر فبراير، قرَّر الطبيب نقلها إلى مستشفى بونتواز، حيث تم قبولها في قسم الطب الباطني. تحسَّنت حالتها خلال بضعة أيام. ثم حاولت الهرب من القسم، فاضطرت الممرضات إلى ربطها في كرسيِّها. ولأول مرة قمت بغسل طقم أسنانها وقلّمت أظافرها ووضعت مرطِّبا على وجهها.

بعد أسبوعين، نقلوها إلى قسم أمراض الشيخوخة، الذي يقع بعمارة حديثة صغيرة بثلاثة طوابق، خلف المستشفى، وسط الأشجار. وزع بها العجزة، أغلبهم نساء، على الطوابق الثلاثة: في الطابق الأول أولئك الذين يقع قبولهم بصفة وقتية. أما الطَّابقان الثاني والثالث، فقد خصِّصا لأولئك الذين يسمح لهم بالبقاء حتى يوافيهم الموت. وكان الطابق الثالث مخصَّصا بالأحرى للعاجزين والمختلِّين عقليًا. كانت الغرف، الفردية أو الزوجية، مضاءة ونظيفة يحفّ جدرانها ورق موشًى بالزهور

ونقوش وساعة حائطية، وبها كراسٍ من السْكَاي وحمَّام ومرحاض. لكن الحصول على غرفة دائمة كان يقتضي أحيانا الانتظار لمدة طويلة جدا، خاصة عندما لا تحدث وفيات خلال الشتاء. استقرت والدتي في الطَّابق الأول.

كانت تتحدث بفصاحة، وهي تروي أحداثا يخيَّل إليها أنها رأتها البارحة، مثل مشاهد سطو مسلَّح أو غرق طفل. كانت تقول إنها عادت للتو من التبضع من متاجر تعجُّ بالناس. استوطنت روحها مُجدَّدا مشاعر الخوف والكراهية وأصبحت تتذمَّر من عملها مثلما يشتكي زنجي من أرباب عمل لا يدفعون له أجره، ومن رجال يطاردونه. تستقبلني بغضب قائلة: «أصبحتُ مفلسة إلى درجة أنني لا أجد ما أبتاع به قطعة جبن». وصل بها الأمر إلى الاحتفاظ بقطع من الخبز في جيوبها من أجل الغداء.

حتى في حالتها تلك، عفت نفسها من كل شيء. انمحى الدين من روحها، وانمحت معه كل رغبة في الذهاب لإحياء القُدَّاس والإمساك بمسبحتها. كانت تريد أن تشفى (سيتمكَّن الأطباء من تشخيص مرضي) وتغادر المشفى (سأكون أفضل حالا معك). كانت تمشي من رواق إلى آخر حتى ينال منها الإرهاق. ويحدث أن تطلب خمرا.

ذات مساء من أماسي شهر أبريل، نامت في تمام السَّاعة السادسة والنصف، مستلقية تحت الأغطية ومرتدية قميصا داخليا، رافعة ساقيها ومظهرة فرجها. كان الجو حارا في

الغرفة. أخذتُ أبكي لأن الأمر يتعلق بأمي، المرأة نفسها التي عرفت في طفولتي. كان صدرها مجللا بعروق زرقاء صغيرة.

انتهت فترة إقامتها التي حُدِّدت بثمانية أسابيع. رخص لها مأوى خاص للعجزة بالإقامة لفترة مؤقتة، لأنه يرفض استقبال أشخاص مختلِّين. في شهر ماي، عادت إلى قسم أمراض الشيخوخة في المشفى ببونتواز. كان قد مكان في الطابق الثالث.

ولآخر مرة، ورغم خللها العقلي، ظلت على حالها لم يتغيَّر فيها شيء، خاصَّة عندما تنزل من السيارة وتقتحم باب المدخل، باستقامة، وهي تضع نظارتها وترتدي بدلتها النسائية الرمادية وحذاءها المبطَّن وجوربين. وفي حقيبتها قمصان وفرش سريرها، وذكرياتها وصورها.

دخلت نهائيا إلى هذا الفضاء الخالي من الفصول، الذي يلفه الدفء اللطيف والعطر نفسهما طوال السنة. توقف به الزمن إلاَّ من تكرار الأعمال اليومية كالأكل والنوم بشكل منتظم جدا... وما بينهما تظلُّ تذرع الأروقة وتنتظر الطعام، وهي جالسة إلى المائدة قبل ساعة من تقديمه. تفتح منديلها وتطويه دون توقف، أو تتابع عبر التلفاز المسلسلات الأمريكية والإشهارات المبهرة. كانت ثمة حفلات بلا شك، توزع خلالها سيدات متطوعات حلويات كل أيام الخميس، أو كأس شامبانيا خلال رأس السنة، أو زنبقا يوم فاتح ماي. لكن نبع الحب لم

ينضب، إذ تمسك النساء بأيدي بعضهن البعض، وتلامس الواحدة منهن شعر الأخرى، ويتشاجرن أيضا. ثمة أيضا هذه الفلسفة المنتظمة للممرضات: «هيا يا سيدتي «د»، خذي قطعة حلوى، إنها تساعدك على تمضية الوقت».

خلال بضعة أسابيع، فقدت الرغبة في المكوث هناك. انهارت وأصبحت تمشي بظهر مقوس ورأس مائلة. فقدت نظاراتها وغدت نظرتها فارغة، ووجهها حاسرا ومنتفخا بعض الشيء بسبب المهدِّئات. بدأ مظهرها ما يبعث على الفظاظة.

أضاعت تدريجيا أغراضها الشخصيَّة، مثل سترتها الصوفيَّة التي أعجبتها كثيرا في ما مضى، ونظارتها البديلة ومحفظة أدوات التجميل.

لكن هذا لم يكن يعني لها شيئا. لم تعد تحاول العثور على أيِّ شيء من هذه الأغراض. لم تكن تتذكر شيئا من ممتلكاتها. لم تعد تملك شيئا. ذات يوم، عندما لمحت تحفة منظف المداخن من جبال السافوا، التي كانت تنقلها معها حيثما ذهبت مذ كانت في آنيسي، قالت: «كانت عندي نفس التحفة سابقا». ومثل أغلب النساء، وطلبا لمزيد من الرَّاحة، كانوا يلبسونها سترة مفتوحة من الخلف، وبلوزة موشَّاة بالأزهار. لم تعد تخجل من شِيء، كأن تلبس مثلا حفاضة اتقاء البول، أو تأكل بشراهة مستعملة كل أصابعها.

صارت المحيطون بها لا يبالون بها أكثر فأكثر. كانت الأحاديث تصلها خالية من معناها. ولكنها مع ذلك تجيب عنها

بلا تبصُّر. لكن كانت ترد كيفما اتفق. ظلت الرغبة في التواصل تراودها دوما. وظلَّت وظيفة اللغة سليمة في أعماقها، جملها متناسقة، وكلماتها سليمة النطق، منفصلة عن الأشياء ببساطة وخاضعة فقط لسلطة الخيال. كانت تخترع الحياة التي لم تعد تعيشها؛ إذ كانت تسافر إلى باريس، وتشتري سمكة حمراء، ويرافقها أحدهم إلى قبر زوجها. غير أنَّها كانت تدرك حالتها في بعض الأحيان: «أخشى أن تكون حالتي ميؤوسا منها». أو تتذكر: «بذلت كل شيء في سبيل سعادة ابنتي ولم تكن سعادتها كبيرة بسبب ذلك».

أمضت الصَّيف (كانوا يغطون شعرها مثل الأخريات بقبَّعة قش حين الذهاب إلى الحديقة العامة والجلوس على المقاعد)، ثم أمضت الشتاء. وفي أول يوم من السَّنة ألبسوها قميصا وتنورة، وقدَّموا لها الشامبانيا. كانت تمشي ببطء، متوكئة على القضيب الممتد على طول جدران الأروقة. كانت تسقط أرضا أحيانا. فقدت النِّصف الأسفل من طقم أسنانها، ثم العلوي لاحقا. تقلَّصت شفتاها، فشغل الذقنُ كامل المساحة. عندما تحين لحظة زيارتها، كنت أقلق من أن أراها قد صارت أقل «إنسانيَّة». لكن عندما أبتعد عنها، كنت أتمثلها بعباراتها وهيئتها السابقة ولا أستحضرها أبدا على الهيئة التي أصبحت عليها.

في الصيف الموالي، تعرَّضت لإصابة، حيث انشقَّ عظم

فخذها. لكنَّها لم تخضع لعمليَّة جراحية، كما أن زراعة عضو صناعي، كما حصل مع الباقي- كإعادة صنع نظارات لها وطقم أسنان- لم يعد ذا جدوى. فقدت القدرة على النهوض من كرسيِّها المتحرك الذي كانوا يربطونها عليه بلفافة من القماش حول خصرها ويتركونها في غرفة الطعام مع الأخريات أمام التلفاز.

كان الناس الذين عرفوها يكتبون إلي: «إنها لا تستحق هذا المصير». كانوا يعتقدون أنه من الأفضل أن «تستريح» بسرعة. ربما سيشاطر المجتمع بأكمله الرأي ذاته ذات يوم. لم يأتوا لزيارتها فهي ميتة بالنسبة لهم. لكن رغبتها في الحياة لا تنضب. كانت لا تكفُّ عن محاولة الانتصاب، واقفة على قدمها السليمة، لتنزع اللُّفافة التي تشدُّها إلى الكرسي. كانت تمد يدها نحو أي شيء في متناولها. ظلت تشعر بالجوع، بعد أن تركَّزت كل طاقتها في فمها. كانت تحب أن نقبِّلها وتزمُّ شفتيها طلبا للمزيد من القبل. بدت مثل فتاة صغيرة لن تكبر أبدا.

كنت أجلب لها الشوكولا وحلويات أقدمها لها بقطع صغيرة. لم أعمد أبدا، في البداية، إلى شراء الحلويات الجيدة، كثيرة القشدة أو اليابسة لأنها لا تقوى على أكلها. (يجتاحني ألمُ أعجز عن وصفه عندما أراها تصارع أصابعها ولسانها من أجل التغلُّب على عجزها). كنت أغسل لها يديها وأحلق لها وجهها وأعطرها. ذات يوم، شرعتُ أمشط شعرها، ثم توقَّفت فجأة عندما قالت لي: «أستمتع دوما عندما تمشطين

لي شعري». بعد ذلك، واظبت على مشط شعرها. كنت أظل جالسة قبالتها في غرفتها. غالبا ما كانت تمسك بقماش تنورتي وتتحسَّسه كما لو أنها تختبر نوعيَّته، تمزِّق الورق الذي يغلِّف الحلوى بقوة، قابضة على فكَّيها، وتتحدث عن المال والزبائن، وتضحك وهي تقلب رأسها إلى الخلف. كانت تلك حركات متأصِّلة فيها وكلمات نبعت منها طوال حياتها. لم أكن أريدها أن تموت.

كنت في حاجة إلى تغذيتها ولمسها وانتظارها.

في مرات عديدة، اجتاحتني الرغبة المباغتة لإخراجها من ذلك المكان، والكفِّ عن العناية بها، لكن سرعان ما أدرك أنني عاجزة عن فعل ذلك. (شعرت بالذنب لوضعها هناك حتى وإن «كان ذلك هو الحل الوحيد» كما يقول الآخرون).

قضت شتاء آخر بيننا. وفي يوم الأحد الموالي لعيد الفصح، أتيت لزيارتها حاملة باقة فورسيثيا. كانت السماء رمادية والجو باردا. كانت جالسة في غرفة الطعام رفقة النساء الأخريات. كان التلفاز مشتغلا. ابتسمت لي عندما اقتربت منها. دفعتُ كرسيَّها حتى غرفتها. رتَّبت أغصان الفورسيثيا في المزهرية. جلستُ إلى جانبها وأطعمتها الشوكولا. كانت ترتدي جوارب صوفيَّة بنيَّة اللون تصل إلى أعلى ركبتها وسترة قصيرة جدا تُظهر فخذيها النحيلين. نظفت يديها وفمها واستشعرت دفء بشرتها. وفي لحظة، ما حاولَت الإمساك بأغصان الفورسيثيا. بعد ذلك،

أعدتها إلى غرفة الطعام حيث كان برنامج جاك مارتان «مدرسة الهوَّاة» يذاع في التلفاز وقتها. قبَّلتها ثمَّ ركبتُ المصعد. وماتت في اليوم التالي.

في الأسبوع الذي تلى وفاتها، تذكرت هذا الأحد عندما كانت حية، والجوارب البنية، وأزهار الفورسيثيا، وحركاتها، وابتسامتها عندما ودَّعتها، ثم يوم الاثنين الذي ماتت فيه مستلقية على سريرها. غير أنني عجزت عن الجمع بين اليومين.

أما الآن، صار كل شيء مرتبطا فيما بينه.

إنها نهاية شهر فبراير. الطقس ماطر في الغالب والجو لطيف. في هذا المساء، رجعت إلى دار العجزة بعد التبضُّع.. وأنا في مرآب السيارات، بدا لي المبنى أكثر وضوحا وحفيًّا تقريبا. كان النور ينبعث من نافذة غرفة والدتي القديمة. لأول مرة، تساءلت باندهاش: «هناك شخص آخر يشغل مكانها؟» تذكَّرت أيضا أنني سأصير، ذات يوم من أيام سنوات ٢٠٠٠، واحدة من هؤلاء النسوة اللواتي ينتظرن العشاء، وهن يفتحن منادِيلهن ويطوينهن، هنا أو في مكان آخر.

خلال الشهور العشرة التي كتبت فيها عنها، كنت أراها في الحلم كل ليلة تقريبا. ذات مرة، رأيتني مستلقية وسط نهر بين مجريَيْ ماء وتخرج من بطني ومن فرجي، الذي ظل ناعما مثل

فرج طفلة، نباتات تطفو مثل خيوط واهنة. لم يكن فرجي أنا فقط، بل كان فرج أمي أيضا.

في بعض اللحظات، يخيل إلي أنني أعيش في الفترة التي كانت ما تزال تسكن خلالها في المنزل، قبل دخولها المستشفى. فجأة، وبوعيي التام بموتها، أنتظر أن تنزل من الدرج وتجلس مع علبة الخياطة في قاعة الجلوس. هذا الشعور الذي يجعل حضور والدتي الوهمي أقوى من غيابها الفعلي هو دون شك أول شكل من أشكال النسيان.

أعدت قراءة الصفحات الأولى من هذا الكتاب. اعترتني الدهشة وأنا أدرك أنني لم أعد أذكر إلا تفاصيل معينة، منها مثلا موظف مستودع الموتى، وهو بصدد مكالمة هاتفية ونحن ننتظر، والكتابة بالزفت على جدار السوق الممتاز.

منذ بضعة أسابيع، أخبرتني إحدى خالاتي أن والدي ووالدتي كان لهما في بداية علاقتهما لقاءات في حمَّامات المصنع. الآن وقد ماتت أمي لا أريد أن أعرف المزيد عنها سوى ما عرفتها وهي ما تزال على قيد الحياة.

تميل صورتها إلى أن تصبح تلك التي تخيلت أنها طبعت ذاكرة طفولتي؛ أي صورة ظل كبير وأبيض يجثم فوقي.

ماتت قبل وفاة سيمون دي بوفوار[1] بثمانية أيام. كانت تحب أن تعطي للجميع أكثر مما تأخذه منهم. أليست الكتابة نوعا من العطاء؟

ليس هذا الكتاب سيرة، ولا رواية طبعا. ربما هو شيء يقع بين الأدب وعلم الاجتماع والتاريخ. إذ كان من الضروري أن تتحول والدتي، التي ولدت في وسط مقهور لطالما تمنَّت الخروج منه، إلى تاريخ حتى أشعر بأنني أقلُّ وحدة وتكلُّفا في عالم الكلمات والأفكار القاهر، الذي انتقلتُ إليه نزولا عند رغبتها.

لن أسمع صوتها مجدَّدا. إنها هي، وكلماتها ويداها وحركاتها وأسلوبها في الضحك ومشيتها، من كانت توحّد المرأة التي أنا عليها اليوم بالطفلة التي كنتها في السابق. وبموتها فقدتُ آخر رابط بيني وبين العالم الذي جئت منه.

الأحد ٢٠ أبريل ٨٦ - ٢٦ فبراير ٨٧

---

(١) كاتبة ومفكِّرة وجوديَّة فرنسيَّة.

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب سيرة، ولا رواية طبعاً. ربما هو شيء يقع بين الأدب وعلم الاجتماع والتاريخ. إذ كان من الضروري أن تتحول والدتي، التي ولدت في وسط مقهور لطالما تمنَّت الخروج منه، إلى تاريخ حتى أشعر بأنني أقلُّ وحدة وتكلُّفاً في عالم الكلمات والأفكار القاهر، الذي انتقلتُ إليه نزولاً عند رغبتها.

لن أسمع صوتها مجدَّداً. إنها هي، وكلماتها ويداها وحركاتها وأسلوبها في الضحك ومشيتها، من كانت توحّد المرأة التي أنا عليها اليوم بالطفلة التي كنتها في السابق. وبموتها فقدتُ آخر رابط بيني وبين العالم الذي جئت منه.



ISBN 978-9922605449
9 789922 605449

الغلاف : سكينة صلوّن